يـا زهـر الرمّـان

يا زهر الرمّان (نصوص)

تحرير: ميّا الصواعية (كاتبة عُمانية)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان

alaan. publish@gmail. com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

سلطنة عمان، مسقط

omani- writers@hotmail. com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

المدير العام: د. باسم الزعبي

لوحة الغلاف: ناجية العلوية

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2021/4048)

ISBN: 978- 99969- 862- 0- 8

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/12/6876)

يا زهر الرمّان

تحرير: ميّا الصواعية

نصوص

الإهداء

إلى الطفلة التي لم تكبر بعد . . . تلك التي ما زالت تفترش الحشائش الخضراء، تطارد الغيوم والفراشات وتعبث بقطرات الماء المنسابة من ساقية، تصطاد في الليل حلما تروّض به صباحات الحياة. . . .

المقدمة

«أشتهي راحة أذكر أنّها كانت تسكن جسدي في الطفولة قبل عشرات الأعوام، لقد كانت نقيّة، عذبة، لم يعبث بها آدمي، ولم يلوّثها غبار الأيام، ولم يقيّدها أيّ قانونٍ وضعيّ أو إلهيّ بعد».

(مُثل الحسبان)

الطفولة كأول خيوط الصباح التي تأذن للفرح بالانطلاق، يتأرجح الوقت فيها بين مشاكسات نحمل ندوبها بقية ذكرى تثير الحنين، وبين أحلام معلقة على حواف النجوم، تغلفها الدهشة وتأملات الحياة، إنها ذلك العهد الذي يظل عالقا في الذاكرة كبدايات لا تُنسى: بدايات المواجهة مع السماء والبحر، الأرض والشجر الريح والمطر، الليل والقمر، تلوّنها الحكايات والأساطير المرويّة التي يرددها الأجداد ليلا لينشرها الصباح بين خطوات صبي أو صبية يمتزجان بالشمس والعنفوان.

من منّا لا يحن للعودة إلى تلك الغرف المخبأة في ذاكرة الحياة؟ حيث الأمان والطهر، حيث الغرق في عذوبة اللحظات. من منّا لا يحلم بآلة الزمن للعودة إلى تلك الضحكات والكفوف المتشابكة التي تدور حول شجرة وارفة الظلال، أو إلى تهويدة انسابت بين إغفاءة وصحو من فم جدة حنون؟ إلى

عفوية الكلمات وسحر الأخيلة وتوقّد الأمنيات، إلى براءة الأفعال وبساطة الردود إلى السحائب الماطرة أريج حب؟

ليس هناك من طريق للعودة سوى إغماضة وسفر عبر سنوات العمر؛ لنقف بكل ما تحمله قلوبنا من لهفة على موقف مر ولم يغادرنا أو حكاية رسمت أحاديث الحب والسمر مع رفاق عبروا معنا ساحات الفرح، ثم تتجلى حرفا يعيد إلينا الربيع المنشود وومضات مُوشّاة بالصبا والجمال.

من هنا جاءت مجموعة «يا زهر الرمّان» لتعيدنا إلى دهشة البدايات؛ لتطرق بلطف ذلك الجانب الخفي الذي لا يفتأ أن تشعله اللهفة بين فينة وأخرى؛ لتشعرنا بقوة الذكرى التي تلقي ظلالها؛ لتكتب وتصور كعمل طبيعي مثله مثل الشجرة التي يلقى عليها السر لإخراج ثمرها، قوة تحول موقفا مرَّ، في الذاكرة، نصًّا يكشف ما يملكه كاتبه من صور ولطائف حرف، تسري في عتمة الألفاظ نورا من شعاع الأدب.

«يا زهر الرمّان» مجموعة نصوص نثرية لكاتبات رزقن خاطرًا رقّامًا وخيالًا أنيقا؛ ليسيل مداد أقلامهن على القرطاس، ويجري على حركات الخواطر والأنفاس فيض ذكرى من طفولة تنساب كانسياب كانحدار الماء المنسجم بين سطور الكتاب.

ميّا الصواعية

طيري يا طيارة

ميّا الصواعية

«هكذا كان الطريق إلى الفضاء المخملي دوما طويلا.....»

محمود درويش

صوت مدفع العيد يمطر مسامعنا جذلا مغلّفًا بالبِشرِ المخضّب برائحة الحنّاء في كفوف الصغيرات، والملابس الباهية التي خاطتها الأمهات بماء عيونهن على ضوء نور خافت لأيام متتالية.

أتسابق مع أختي فاطمة والصغيرة خولة، كنت وما زلت واسطة العقد، نمدّ كفوفنا وأعيننا تترقّب والدي الحنون، وهو يدسُّ يده في جيبه لإخراج بعض من الريالات، وكل واحدة منا لديها حلمها الخاص الذي ستحوله العيدية إلى حقيقة، كان حلمي كالعادة يتجدد كل عام، أن أبتاع طائرة ورقية ملونة، يا للسرور وأنا أتخيل شعور الحصول عليها من أحد الباعة في الهبطة.

أهازيج صباح العيد تبعث البهجة في المكان الذي انتشر فيه كم من البشر بثيابهم الموشاة، أصوات الباعة والأطفال مع أبائهم، تلك الأصابع التي تلوح بهجة بشراء لعبة أو الحصول على كيس من حلويات العيد

الشهية، عيناي تنتقلان بين البضائع لأسحب طائرتي الورقية، إنها حلمي وغاية ما أطمح لامتلاكه. وعند العودة إلى المنزل يبدأ الجميع بالانغماس في مظاهر العيد السعيد، فاطمة تبذل جهدها لمساعدة والدتي وجدتي، خولة تظفّر شعرها الكستنائي الناعم وتزيّنه بما اقتنته من الهبطة، بينما أتسلل خارج المنزل لأعدو بعيدا بين يدي خيط طائرتي الورقية، يبدأ كل شيء خلفي بالاختفاء، لا أحد سواي وطائرتي، روحي مشرقة وكأن قطرات من الغيث أصابتها فأزهرت، أشعر بحرية لم أعرفها من قبل في الفضاء الرحب، الهواء يملأ رئتي، وجسدي الصغير يعلو الهضاب الرملية المنتشرة، ويقطع الدروب كالفراشة، عيناي مسمّرتان تجاه طائرتي الورقية أتبعها أينما حملها الريح، لا ينتابني الخوف أو القلق، فقط أعدو وابتسامة الدهشة تعدو معي، لم تكن طائرتي مجرد طائرة ورقية يلهو بها الصغار، بل كانت الطريق الذي يأخذني بعيدا عن طقوس الحياة المعتادة، حيث النشوة الغامرة، إنها تحملني إلى مدن من الأمنيات المتلألئة كالماسات، أحلق معها وأستسلم للخيط بين أصابعي بكامل إرادتي، تنبسط الأشياء أمام عيني وتتجلى حقول وينابيع من الجمال الممتد في فضاءات لا يراها سواي، إنني بين الأرض والسماء، السماء التي كم راقبت نجومها وأفلاكها في عجب وذهول، وكم من الأسئلة داهمتني:

ماذا وراء هذا الفضاء الشاسع؟

هذا الغطاء الأزرق من أين تبدأ حوافه وأين تنتهي؟

لم تكن الإجابات التي تصل إليّ تسد نوافذ الحيرة في نفسي، فتظل السماء الصفحة المذهلة التي أرنو إلى ملامستها، علني أجد بابا للولوج إلى ظلال النجوم، يلتف خيط الطائرة فأمسك به جيدا، صوت الرفرفة موسيقى تمتزج بابتساماتي المنتصرة، ألوانها ترسم مع زرقة السماء وانعكاس شعاع الشمس لوحة خلابة تكسر وحدة اللون، بينما روحي تواصل التحليق، أنجذب إلى الغيمات، وأغمض عيني، فيخيل لي أنني غيمة أخرى تطفو فوق البياض اللامحدود، تخذلني الريح مرات ومرات، إلا أنني أظل أنتظر نسمة لأبدأ العدو حتى تمر طائرتي بغصن غافة فتثقب جناحا لتسقط أمامي جاثمة دون حراك، أبحث عن مكان الثقب، أتلمس بيدي حجمه، وهنا تبرق فكرة إصلاح العطل، عليّ أن أجد حلّا فما زالت السماء بعيدة وما زال قلبي متوهجا للقاء، أقف أمام طائرتي برهة من الوقت لا أعلم سببا لهذا الوقوف والتحديق، ربما كان عقلي الصغير يرفض فكرة العودة إلى المنزل، فالانزواء والغرق في التفكير والخيال عادتي الدائمة، وسمة تثير التهكم والضحك بين أفراد أسرتي، كما أنني لست الفتاة التي تحب أن تقتني عروسا زرقاء العينين تقضي معها أياما تمشط شعرها الذهبي، وتخيط لها من بقايا الأقمشة فستانا زاهي اللون، كنت فتاة الطائرة الورقية كل عيد.

بدأت الشمس تبعث شعاعها سياطا تدفعني للتوقف عن التفكير والعودة إلى المنزل، أحمل طائرتي بين ذراعي على أمل أن أحلق من جديد.

تصدح فيروز «طيري يا طيارة طيري..» في صباحاتي إلى العمل، فيقفز وجهي الطفولي، وخصلات شعري المتطايرة مع الريح، وابتسامات الدهشة، وزرقة السماء الممتدة، وخفقان قلب صغير أغرته مشاعر غامضة نحو الفضاء المطلق.

تحل الأعياد تترى، وسحر الطائرة الورقية ما زال عالقا في حنايا الذاكرة، وذات عيد أسأل أطفالي الأحبة:

ماذا أهديكم؟ تضحك عيونهم النقية، ويتقافزون حولي كالضوء يحسبون بأصابعهم الصغيرة أحلامهم، لكن لا أحد منهم يذكر طائرة ورقية ملوّنة....

بين طفولتين

سالمة المرهوبية

إلى أمي كل الطفولات الجميلة التي عشناها..

ثَمَّة قصة غير مكتملة في حكايات أمهاتنا عن طفولتهن وحيواتهن في بيوت أهاليهن، يظهر ذلك جليًّا حين يجلس أحدنا إلى أمّه ويطلب منها أن تحكي له عن طفولتها وذكرياتها في بيت أهلها، أو ما تتذكره عن طفولتها. فلا تأتيك سوى قصص مبتورة لا تجد لها بداية أو نهاية، بل مجرد شظايا صغيرة من طفولة كانت أقصر من أن يتاح لها مجال لكي تبقى في الذاكرة.

تلك الذكريات الهشّة البسيطة حدَّ التقشف تعكس حياة الشظف التي عاشوها، وتُبِينُ بشكل جَليٍّ أنَّ الأطفال – وتحديدًا الفتيات– في ذلك الزمن، وفي أزمنة كثيرة مماثلة، كانوا أشبه بأيدٍ عاملة في بيوت أهلهم، تقوم بالكثير من الأعمال من رعي، وتحطيب، وجلب للماء، وتوفير العلف للأغنام، وعمل في النخيل في موسم الصيف. بالإضافة إلى أعباء المنزل من غسيل وطبخ وتنظيف بتلك الوسائل البسيطة المتاحة لهن في ذلك الزمن، الذي شهدت فيه البلاد الحروب العالمية، والحروب الداخلية، والفتن والفقر والجوع والأمراض المعدية والجهل والظلام، وكانت الطفلة تُعدُّ لتكون ربَّة بيت لزوجٍ لا تعرفه، وتزفُّ له وهي في التاسعة من عمرها، فأين يتهيأ لتلك الطفلة أن تعيش طفولتها؟!

وتأتي تلك القصص غير المكتملة عن الأخت، التي ماتت غرقًا في الفلج وهي طفلة صغيرة، أو عن اليتم في الطفولة، لأنّ والدها مات وهي لم تتعدّ الخامسة... وعن كتبه التي رأت أقاربه يخرجونها... وعن الميراث الذي اقتسموه... ولم تنل منه شيئًا سوى ما أبقاهن هي وأمها وأخواتها على قيد الحياة. أو قد تأتي الحكاية عن الرّمد الذي ذهب بنور عينيها، وتراه عقابًا لها، لأنّها كانت تكحل القطط الصغيرة بالتراب في عينيها وترميها في البئر. أوعن مدرسة القرآن وهروبهم من الذهاب في يوم الخميس، حتى لا يضربهم المعلم لأنهم لم يحضروا بيسة الخميس، وهي أجرته التي يتسلمها منهم. لم أسمع من أمي قصة في طفولتها المعذبة لا عن ثوب جديد فرحت به، ولا عن لعبة كانت تلعبها هي وأخواتها أو قريباتها أو أترابها. كل ذلك هو ما أسرع بالطفلة لتكبر، وتصبح أمًّا وهي في الرابعة عشرة من عمرها، أو قبل ذلك، في بيت زوجية ليس له من الخصوصية نصيب، فهو بيت عائلة كبيرة تكون الفتاة فيه يدًا عاملة إضافية، فالطفلة الأم في بيت زوجها تُلقى إليها المزيد من الأعباء. إذ تصبح أمًّا وتتسع دائرة مسؤولياتها وأعمالها. وهكذا تكبر الطفلة دون طفولة...

تلك الذكريات يمكننا أن نكتب عنها سجلات حافلة وحكايات لا تنتهي، فحديث الطفولة غالبًا مع جيلنا هو أحاديث ذات شجون وشؤون، وقصص لا تملّ، وسلسلة متّصلة من الروايات، فكلّ حكاية تجرُّ أختها. بين طفولتنا الزاخرة، وطفولة أهالينا المغيبة في الصمت والتجاهل والبعد، هوة واسعة وبون كبير، بل بالأحرى القول هنالك حكاية لم تروَ وقصة لم تنته.

طفولة بين جنبات البحر والجبل

سعاد علي العريمية

لا تزال الجنة مع الطفل، حتى إذا كبر قيل له
كما قيل لآدم: «اهبط منها».
أكل آدم من الشجرة، ولا شيء يضيع في الكون،
فأين الحلاوة التي ذاقها في الجنة؟
هي في أفواه الأطفال.

مصطفى صادق الرافعي

جنون الطفولة شيء من الجنة ونعيمها، صباحات مليئة بحياة ومساءات كذلك، ولا ينهي هذا النعيم اليومي سوى إعلان البدن استنفاد قدرته على الحركة معلنا الموت اليومي له، يحملك هذا الجنون إلى حياة الصباحات، وانتشائها بعودة الروح، بمذاق الإفطار البسيط الذي لا يزيد على قطعة خبز ساخن وشهي، وكوب شاي ممزوج بالحليب والسكر، ودفء الأمومة، يعقبه رحلة الجنون، أما إلى البحر ورحلة البحث عن مكنوناته من أصداف وأسماك صغيرة يقتلها العبث الطفولي بعد هذا البحث، وأما إلى الجبل فنتخذ منه وأختي وصديقاتي الحياة المصغرة، نتقمص الأدوار، بعضنا بحسب الأعمار، والبعض الآخر بحسب الحنكة، لكنني أفضل أن أكون كأنا، فتاة صغيرة لا تتحمل سوى مسؤولية نفسها حتى وإن كان الأمر دراما طفولية قصيرة.

نستمتع بهذا الأمر، ونجيد فن التقليد، نقسم تجاويف هذا الجبل إلى أقسام تتناسب وحجمه، التجويف الأكبر غرفة المعيشة والأصغر منه مطبخ لنا، أدواته عبارة عن علب مواد غذائية فارغة، والتراب هو الوجبة التي يقلد بها الأرز مع بعض من القطع، أما الزجاجية أو البلاستيكية فتتخذها كبهارات أو شيء من التزيين لهذه الوجبات، أو قد تكون هذه الوجبة حقيقة، عبارة عن قطع بسكويت ومشروبات غازية وشوكولاتة، أو رقائق ذرة مرشوشة بشيء من الشطة الحارة، أو تمر هندي يرافق لذته شطة تزيده إقبالا عليه.

قد نتخذ الجبال بيوتا أو من الأرض الممتدة، نسوُّر أجزاء هذه الأرض بالصخور، وأيضا نقسمها بحسب الأمزجة، نتجاور بهذه البيوت، ونتجاوز الزمان والمكان بخيال طفوليّ جميل.

نشترك مع الصبية الصغار في اللعب، وهنا أتذكر رحلة المجازفة التي نخوضها مع أطفال قريتي الصغيرة، يرافقنا في هذه الرحلة علب بلاستيكية يزال أحد أوجهها الجانبية، فنصعد سريعا إلى قمة الجبل؛ لنمتطيها في نزول هو الآخر سريع إلى أسفل الجبل.

لعبة إغراؤها يأتي من كونها رحلة طيران وارتفاع، نستمتع بها مخلفين أخاديد في هذا الجبل هي أوسمة انتصارات لأطفال صغار، يسخّرون ما سخره رب الكون لهم: جبال صخرية نتخذ من تجاويفها بيوتا، وجبال حصوية نتخذ منها ميادين تزحلق، وبحار نتخذ من مدها رحلات استكشافية لما خلفه البحر. وجزرها استكشاف من نوع آخر، استكشاف لمدى قدرتنا على السباحة فيه، واختطاف أسماكه الصغيرة بحيلٍ طفوليةٍ لا تتكرر، أجيد إحدى هذه الحيل، فأركض إلى مطبخ بيتنا، وأحملً في كيس صغير شيئا من الدقيق، وأفر هاربة

عن عيون أمي، وكذلك يفعل إخواني وأخواتي، ومن هم في عمرنا في رحلات المجازفة للحصول على أسماك يبهجنا شكلها وحركتها، وأسرها.

أجلب علبة معدنية متوسطة الحجم، وأعجن الطحين بماء البحر، وأغطي الجزء العلوي المفتوح من العلبة المعدنية بكيس بلاستيكي، أثبته بحبل أو شريط من قماش، وقبلها أكون قد وضعت في وسط العلبة حجرا متوسط الحجم؛ لتثبتها في قاع البحر، وأضع قطعة من العجين في داخل العلبة، وأضع شيئا قليلا منه على وجه العلبة فوق الكيس البلاستيكي، وألج إلى البحر، بهدوء؛ لأضع العلبة، وأتأكد من استقرارها بقاعه، أخرج إلى الشاطئ؛ لأراقب إقبال الأسماك الصغيرة عليه، يحتاج الأمر إلى الكثير من الصبر، فقد تدخل سمكة واحدة فقط أو عدد قليل من الأسماك، فتكون النتيجة غير مرضية لي مقارنة بمن يمارس نفس أسلوب الصيد على هذا الشاطئ، وهم كُثر «بنات وبنين»، كُلٌّ يُمارس الفن الذي يجيده في الصيد والسباحة.

يجذبني صوت ارتطام الأسماك بالكيس البلاستيكي، فأركض لالتقاطه، وقبل الالتقاط أكون قد أحكمت إغلاق الفتحة التي دخلت منها الأسماك، فأركض، يزيدنا انتشاء هذا الانتصار، وسماعي ومشاهدتي لكم الأسماك، أستمتع بحركة الأسماك السريعة.

هنا أجمع هذه الأسماك؛ لأضعها بزجاجة ملأتها بماء البحر أثناء فترة الانتظار، فأدخلهن سمكة، سمكة، وأستمتع بمنظرهن بهذا القرب، وفي نهاية هذه الرحلة يكون مصير أغلب هذه الأسماك الصغيرة الموت، وإرجاع البعض ممن نجا إلى البحر بعد أن أرى عليهن مظاهر الإعياء، فأفرغ ماء البحر ومعه الأسماك في البحر.

طابور الصباح

خاتمة الرشيدية

ارتدت زيها المدرسي باكرا، كانت قد حرصت منذ البارحة أن تتأكد من أنه نظيف، وأنه ما زال يحافظ على اصفرار لونه، ولم تنسل خيوط حزامه البني فيكشف جزءا من جسمها، كما حدث مرة حين طلبت منها المعلمة أن تقف أمام السبورة المعلقة على «دعون»* الصف، وتقرأ الكلمة المكتوبة بالطبشور الأزرق. وحين ترفع العصا على الكلمة تصدر ضحكات عالية من الطالبات، ما يجعلها تسرع الخطى خلف العريش لتحاول أن تستوعب سبب ضحكاتهن، فتتفاجأ بذلك الجزء المكشوف من جسمها، حاولت أن تصلحه، ولكن لم تفلح في شيء سوى أن تُقرر قضاء يومها المدرسي ملصقة ذراعها بالحزام لتُخبئ ما يكفي لتخبئه.

باغتتها والدتها بالسؤال فأعادتها إلى حيث هي الآن «جبت المعشّي* البارحة؟».

أجابتها: «لا، نسيته» وهي تدسُّ دفتر الواجب المنزلي الذي عكفت عليه ليلا لتنجزه، في حقيبتها القماشية الصنع.

«الحين بتروحي تجيبيه».

---

* دعون: جدران سعفية من الأغصان الكاملة لشجرة النخلة تُرص مع بعضها بعضًا بالحبال.

* المعشّي: البرسيم الذي يُعطى للغنم وقت المغرب بلهجة أهل الباطنة.

رفعت رأسها واجمة. هل ما سمعته صحيح؟ الساعة تقترب من السابعة والمزرعة بعيدة عن منزلها، ثم هناك شيء آخر.

وضعت حقيبتها جانبا وهي تحاول الوقوف والنظر إلى عيني والدتها؛ لتؤكد على مسمعها ما قالته، أو ربما هي حالة استعطاف وترجي بالعدول عن هذا الأمر التعسفي جدا.

«المدرسة... أأ....».

«الحين بتروحي تجيبيه، وخليني أشوفك تنسيه مرة ثانية». وذهبت.

مخلفة في عينيها ألف سؤال وسؤال يحاول أن يستوعب منطقية الأمر، وكون خيار المناقشة مغلقًا، وضعت حقيبتها أمام باب المنزل، وخرجت من الباب الخلفي الأقرب للمزرعة.

الطريق إلى المزرعة يمر بعدة بيوت، وزقاق ضيقة، تصادفت وهي في طريقها مع بعض أبناء الحي وأحدهم يهرول لئلا يفوته طابور الصباح، وأخرى تبكي وخلفها والدتها بالعصا تهددها بالعقاب الشديد إذا تغيّبت عن المدرسة.

كانت تمشي بسرعة كبيرة جدا، مطأطئة رأسها لئلا يلمحها أحدهم ويستهزئ بها، ودّت للحظة أن تصمّ أذنيها عن كل صوت تسمعه في طريقها.

أوغلت حذاءها المتهالك في «غيلة الطين» القريبة من المزرعة. وجدت «المعشّي» أمام باب المزرعة، يبدو أن العامل وضعه هناك حين لم يجد من يأتي لأخذه بالأمس.

قلبت نظراتها بين «المعشّي» المغلّف برذاذ الفجر والملقى على أرض المزرعة الطينية المبللة، وزيّها المدرسي النظيف، وحجابها الذي ثبتته بالمشبك الأبيض حتى لا تختلس شعراتها النظر إلى الخارج. فتكون سببا

لعقاب آخر. كيف ستحمله على رأسها؟ وكيف ستحاول أن تضمن أن يبقى زيّها نظيفا؟

أمسكت «المعشّي» بأطراف أناملها الصغيرة، وأبعدته بكلتا يديها لئلا يلامس زيّها المدرسي، ويفترض أن تبقى على هذا الوضع حتى تصل إلى المنزل مرورا بذات الأزقة والبيوت. ومحاولة إبقائه على هذا الوضع لم تكن بالمهمة السهلة، تناوبت يداها على مساعدتها، فأحيانا تحمله باليد اليمنى واليسرى تدعمها، وأحيانا تنقله لليسرى والأخرى تدعمها.

في طريقها صادفت إحدى جاراتهم، «أم سالم» التي دائما ما تحاول أن تلقي بكلماتها «العفوية» في قاموسها و«المزعجة» في قاموس الطفلة. ودّت جدا أن تغيّر مسارها، ولكن كان قد فات الأوان.

«وأبوي عليك كان الحين جايبة «المعشّي!».

لم تعتد أبدا أن ترد على كلماتها، ولكن لا تعرف لماذا قررت اليوم أن تنظر إليها بغضب، ربما لأن النار التي استعرت في داخلها منذ الفجر، وجدت حطبا ليؤججها فاضطرمت في عينيها.

اندهشت «أم سالم» من تلك النظرة وأخذت تنظر إليها وهي تتابع سيرها إلى بيت «أم راشد»، الموئل الذي يحتضن ترهاتهن الصباحية.

وصلت إلى «درس الهوش». ألقت بـ«المعشّي» بكل حنق وحزن وخيبة أمل وغصة خبأتها عنوة، ثم ذهبت.

أخذت حقيبتها المدرسية، أغلقت الباب بسرعة وأخذت تجري بكل طاقتها إلى المدرسة، المدرسة التي كانت تعتقد أن الطريق إليها كان قصيرا

جدا، يمتد اليوم أمامها أمتارا شاسعة.

حتى سور المدرسة ذو السياج الحديدي غابت ملامحه اليوم فلم يعد قريبًا ولا واضحًا. واصلت جريها وهي تتشبث بجيب ثوبها بكلِّ قوة. وكأنه يحوي ما تخاف عليه أن يقع. تتمتم بعض الكلمات غير المفهومة أثناء جريها.

بدأت ملامح الفصول العريشية تتضح لها، شجعت نفسها على الجري بسرعة أكبر، ضربات قلبها الصغير تسارعت حتى خُيّل إليها أنها بلغت حنجرتها فحبست أنفاسها، لكن ذلك لم يُوقفها ولم يترك لها المجال لتتأنى، كان ما يدعوها للجري يستحوذ على كل تفكيرها وحواسها.

وأخيرا، تصل إلى بوابة المدرسة الحديدية الخضراء، وتدفعها بكل قوتها، لتقع عيناها على طوابير الطالبات وهي تداعب تلك الرمال الناعمة بأحذيتها في طريقها إلى الفصول.

تسمّرت في مكانها، هزّت رأسها لتستوعب ما ترى. نقلت نظراتها بين طوابير الطالبات، تمنت فقط لو بيدها إيقافهن، واعادة كل شيء لبضع دقائق فقط، بضع دقائق.

سقطت حقيبتها، وهي ترخي يديها من الشيء الذي يسكن جيبها، لم تعد تكترث بسقوطه، وبكل تثاقل تدخلها وتخرج تلك القصاصة الورقية منه.

شعرت بخذلان ركبتيها، فأرختهما على الرمال، لا يهمها الآن اتساخ ملابسها، فتحت القصاصة ببطء شديد، لتسقط عيناها على الكلمات التي كانت ترددها أثناء جريها: «مديرتي الفاضلة، معلماتي الفضليات، أخواتي الطالبات، أسعد الله صباحكن بكل خير..... ».

جيوب الذاكرة

فاطمة العلياني

رعى الله أيام الطفولة إنها
على جهلها أحلى وأهنأ ماليا
ليالي أظن الكون إرثي وأنني
أعير النجوم الزهر نور بهائيا

المازني

جيوبٌ تحملُ أسرارنا المخبأة، حتى غدت من الصغر ما يوجب علينا حين نستذكرها أن نسلط المجهر، فتكبر تدريجيًّا لتغدو حيةً كلحظة آنية، وكأنها حدثت في الأمس القريب. لم نكن نعي ونحن نحفظ نقودنا في تلك الجيوب ونربت عليها برفق أننا سنحفظ فيها أكثر من تلك العملات النقدية، وأننا سنحفظ معها أسرارنا الطفولية التي لن تزول بمجرد غسلها كلما اتسخت، فهي متصلة بالقلب ومحفوظة في جدران الذاكرة، وبأننا كلما استبدلنا ثوبًا حفظنا في جيوبه سيرة ذاتية وغيرية سنستحضرها في لحظات متفرقة... في لحظة سكون مع الذات، أو عند اللقاء في أحاديث عائلية، وبعضها يظل في ذاكرة منسية في الواقع، حاضرة في عقلنا اللاواعي الذي يصر على استحضارها كعلبة ألوان نرسم بها المشهد المسترجع مع فارق التوقيت.

(1)

جيب علياء الأبيض..

حبة عاج صغيرة تمدُّ جسرًا إلى مرابع الطفولة، حينما كنت أقبض على كرة زجاجية ملونة تيلة أضعها في جيبي، كرة تشهد على هزائم صغيرة وانتصارات أصغر، أبسطها في يدي، فتجري نحوي علياء بشعر أسود ينساب مرتاحًا على ظهرها، وعينين تتسعان بصفاء ولمعان، وفستان ختمَ الطين عليه ببقع متفرقة. اعتادت علياء الخروج في ذات التوقيت كل صباح، تحث الخطى بابتسامة ما فارقت وجهها يومًا إلا في نوبات البكاء الهستيري الذي يراودها بين فترات لا يمكن التنبوء بها، تصطنع لنفسها بابًا وهميًّا تخرج منه عند عتبة بيتها لتنطلق منه نحو أفق اللعب واللهو.

ما زالت ذاكرتي تصطاد علياء، وخروجها من بابها الزجاجي الوهمي، حاملة في كفها الصغير نبتة خضراء، وبحركة سريعة تحفر حفرة في الأرض بكلتا يديها وتغرس النبتة في بطنها، وتطمر الأرض، تشير إلي فأذهب إليها رغم أصوات الأطفال المانعة، تمسك يدي وبخوف أسحبها؛ فتعود لمسكها وتربت بيدي على الأرض، سرت عاطفة الصداقة بيننا منذ ذلك الحين.

كان الأطفال يتجاهلون علياء، ويخشون ردات فعلها العنيفة غير المتوقعة التي تصدر دون رغبتها، فقد كانت مفسدة للمرح، فيدها عنيفة عند رمي (التيلة) وغالبًا ما تنتهي اللعبة إما باختفاء إحدى الكرات الزجاجية نتيجة المسافة البعيدة التي ترميها بها علياء، وإما بحادث غير متوقع حين تسقط الكرة فوق رأس أحدنا. ابتعد الأطفال عن علياء؛ لخشونة طبعها وصوتها

العالي، وعنفها في اللعب، إلا أن التصاق بيتنا ببيتهم جعل فتيات البيت المرشحات للصداقة حذرات معها، لم تعد علياء جارتي فقط بل أصبحت صديقة مقربة، تدخل بيتنا باستمرار، وحين أنجبت أمي أختي الصغيرة، كان لعلياء حيلة خاصة لإسكات الصغيرة كلما أزعجها صراخها، إذ تلجأ لوضع أصابعها في فم الصغيرة وتنظر لها بحنو بالغ، وأنا أراقب الموقف معجبة بتصرفها. تناديها والدتها كل يوم مرات ومرات كلما بعدت عن ناظريها، فتجبرها على العودة إلى زاويتها في البيت فتربطها خوفًا عليها.

ومضى الصيف وعلياء تنمو في عائلتنا كنبتة تتعمق جذورها، إلا أن المشهد الذي ظلت والدة علياء تخشاه تحقق، لتصدم سيارة مسرعة جسد صغيرتها وتلقيه مضرجًا بالدماء، وسجنته حبيس غيبوبة طويلة، تركت علياء فراغًا كبيرًا في قلوبنا جميعًا، وتعاطفًا من أطفال الحي، ظللت أسأل نفسي كلما استدعت الذاكرة طيفها الضبابي: هل كانت علياء تعي الموت الزاحف نحوها وهي تجري في الشارع فرحة ليتناثر نصف عقلها الذي عاشت به؟ لا أدري، ولكن ما أتذكره أن كل ما تلا غيبوبتها الطويلة هو إعلان لخبر وفاتها، حينها أمسكت بالكرة الملونة في جيبي التيلة التي طالما لعبنا بها، وأنظر لجيب ثوبي الآخر، فأرى انعكاس بياضه كبياض قلبها.

(2)

جيب بألوان قوس قزح

تمتد الأيدي الصغيرة إلى الدراهم المعدنية التي تكدست كتلال فضية لامعة تحت سطوة الشمس، فقد اعتاد الأب على وضعها على رف النافذة المجاور للباب الخارجي، وكانت التلال المعدنية متساوية وبعدد أطفاله. مثَّلت تلك الكومات المعدنية من الدراهم قيمتها الخاصة في الصيف، إذ ينطلق الإخوة الصغار كسهم ممتد إلى بقالة محي الدين التي لا يفصلها عنهم سوى الشارع المسفلت، إذ تشد الأيدي على بعضها البعض، وتطلق الأرجل الصغيرة نفسها للريح. كان محي الدين – وهو من العمالة الآسيوية – رجلا نحيل البنية، باسم الثغر، يحنو على أطفال الحارة حنو الأب على صغاره، يعمد كل صباح إلى إعداد وجبة الأطفال الصباحية المكونة من البيض المسلوق مع الصمون والجبن والشطة الحمراء، إضافة إلى عصير الفيمتو المثلج.

كانت لهفة الأطفال على تلك الوجبة تثير حيرة الأم وتساؤلها عن سر تفضيلهم لوجبة يعدُّها عامل آسيوي وافد على فطورها الصباحي اللذيذ! إلا أن المشهد ذاته يتكرر كل صباح.

تهطل الأمطار بغزارتها، فيجري الوادي باتساعه قاطعًا الشارع المسفلت إلى الحارة المقابلة، وحين يحل الصباح وتسطع الشمس بعد عدة ليالٍ ماطرة تبدأ لعبة جديدة للأطفال الصغار، فالأرض تمتص ماء المطر السطحي وتبقي بقايا الماء الملتحم بالتراب؛ ليُشكّل معه تحفة طبيعية،

فتظهر الأرض كشقوق متجاورة تفتح شهية الأطفال لخوض مغامرة لعب جديدة. تتجه الفتيات لجمع صحون الطين، ويُشكلن بالطين بعض الفواكه والأكواب والوجبات الطينية المتنوعة لحفل صغير شبيه بقهوة العصرية التي تقيمها الأمهات. أما الصبية فيأخذون ألواح الطين ويرصّونها فوق بعض بشكل مقلوب ويرممون الفجوات بالطين الرطب، دون نسيان فتحة البرج للمراقبة، كانت الضحكات تعلو في فضاء المكان، وقبيل الغروب بقليل تبدأ حرب بين الفتيات والصبية إذ يستهدف الصبية مائدة الفتيات الطينية بكرات الطين، فتسرع الفتيات بهدم الحصن، وتنتهي المعركة الطفولية دون خاسرٍ أو منتصر، عدا انتصار الطفولة الباسمة وذكرياتها المخبأة في جيب يضج بألوان الفرح.

(3)

جيب من دخان..

كانت نساءُ الحي لحمةً واحدةً، وقهوة العصر لازمة في عرفهن، لا سيما في فترة الصيف، حيث لا ارتباط بمدارس الأطفال وواجباتهم، ولطالما صاحب تلك اللقاءات الودية أطباقًا شهيةً تفوح بأشهى الروائح، وأجمل الألوان. وإن تعذر اللقاء الكبير اكتفت الأم وأختيها وابنة أختها المتزوجة حديثًا باللقاء في طقوس العصرية. في ذلك اللقاء لم يكن للأطفال مكان بينهن عدا الرضيع فقط، فالأمر يصدر باجتماع الصغار في أحد البيوت التي لا تشملها قهوة ذلك العصر.

ابتدع الأطفال لأنفسهم طقوسا خاصة، وكانت الألعاب تتنوع فلعبة المدرسة حاضرة في صيفهم، يتم تجهيز الصف بكل ما فيه من معلم وطلاب وواجب، ويتم تصحيح الواجبات بالقلم الأحمر، إضافة إلى لعبة الاختباء وقفز الحبل ولعبة التيلة، والحكايات التي لا تتوقف. وظهرت لعبة أخرى من خلال حرص الفتيات على الترتيب والتنظيم وبمساعدة الفتيان.

تمثلت تلك اللعبة في ترتيب البيت بتفاصيل جمالية كمهندسي الديكور. أضفت هذه اللعبة متعة جمالية رسمت بهجتها على الشفاه، ورأت الفتيات أن إضفاء رائحة جميلة تصاحب جمال المكان أمرٌ بالغٌ الأهمية؛ لتكون أول ما يدغدغ حاسة الشم لدى الخالة قبل دخولها، فتقرر عمل البخور من قبل كبار الأطفال الأخ وابنة الخالة، إلا أن عود الثقاب ظل طريقه إلى المبخرة ليسقط على الخيوط الحمراء للسجادة المزركشة القابعة في منتصف صالة البيت، لم يفهم الأطفال كيف يمكن لعود ثقاب صغير أن يشعل نارًا بتلك السرعة ويُحدث كل الضرر الذي ظهر بعد إخماد الحريق الذي طال بسبب كتمان السر، إلى أن قرر أحد الأطفال إخراج السر من جيوب أقرانه، ويمضي منطلقًا لإخبار الأمهات، فالمسافة بين البيتين ليست ببعيدة، والنيران تتصاعد مكونة سحابة سوداء لا مطر فيها، تم إخماد الحريق بمساعدة الجيران وأهل الحارة، إلا أنه وبعد حادثة الدخان تلك لم يسمح للأطفال باللعب دون رقيب، ولم يُسمح لكل الأسرار بدخول الجيوب الصغيرة.

يا (مي) حبك

د. مريم طه

عندما أستمع إلى أغنية فيروز (يا لور حُبكِ) لا يسَعُني وأنا أدندنها إلا أن أبدل اسم لور بـ(مي) وما أفتأ أغنيها (يا مي حبك)

يا مي حبّكِ قد لوّع الفؤاد
وقد وهبتكِ الحبّ والوداد
ألا تذكّري لياليَ الصفاء
وعهدًا عهدناه على الوفاء

الليل والأحلام والشاطئ النادي
والشوق والأنغام والموطن الهادي
يا طيبها أيّام أحلى من الغفى
وتنشد الأنسام على الوفا

أيام الصفاء التي جمعتنا أنا وأختي «مي» والطريق اليومي إلى الكُتّاب.. حيث كنا نحفظ القرآن على غير رغبة كعادة الأطفال المشاكسين في رفض أي التزام.. ما كان يخفف عنا هذا المضض إلا

شيئان: أولهما المزيد من المصروف اليومي لنبتاع قليلا من الحلوى نأكلها في ذهابنا أو عودتنا، والشيء الثاني هو اللعب والمشاكسة مع رامي ونرمين والكلام المليء بالكذبات المختالة التي يتراشقها الأطفال عادةً، من نوع صرفت اليوم أكثر من جنيه كاملا وأدّخر المئات أيضا.

لا يخلو الأمر أيضًا من كذبات أخرى على الشيخ؛ للتهرب من الحفظ على غِرار سافرنا بالأمس أو كنت مريضة فلم أستطع الحفظ.

من بين ثنيات ذاكرتي أذكر ذاك الحوار:

- (ربَنا اغفر لنا ولأخُوننا) الذين سبقونا بالإيمان..

ردّني أبي وهو يرتدي ملابس كرة القدم، تلك الرياضة التي يعشقها ويأبى ترك ممارستها حتى في خمسينيات عمره:

- أخوننا ايه بس يا بنتي.. اسمها (إخْواننا).

كنت ذاك اليوم سعيدةً جدًا لأنها أول مرة أستطيع القراءة من المصحف، وكنت قبل سورة الحشر هذه أحفظ سماعا فقط من تلاوة الشيخ، مازلت حتى الآن كلما مررت بسورة الحشر مُراجعةً أشعر أن أبي جالس قِبالتي بفانلته الرياضية الصفراء منحني؛ ليربط رباط نعاله الرياضي، ويردّ خطأي.

أوحشتني يا أبي وأشعر أنك معي في كل آيةٍ أقرؤها، ما زال صوت تلاوتك الزاكي أوَّل صوتٍ حبّب إلي القرآن، يتردد في مسامعي ويؤنس وحدتي.

كَبُرنا يا «مي»، ومنّ الله علينا جبرًا لإصرار أبينا الحنون، وحفِظت إحدانا كتاب الله رغم أنف شيطاننا المشاكس.. وإلى الآن يا «مي» رغم بعد مسافاتك عني ما زلت كلما راجعت سورًا كالرحمن والواقعة أشعر أنني عدت إلى الوراء ثلاثين سنةً، وأننا ما زلنا نجلس معًا أمام الشيخ ونلكز بعضنا بعضًا بالأرجل خِفيةً؛ لتصحيح لي إن أخطأت دون أن يلحظنا الشيخ.. وأضحك وأنا أتذكر عدْونا وضحكنا وكذباتنا الساذجة، لا يُنسيني بعد المسافات عهدًا عهدناه.. على الوفاء.

دموع الغسق

زهرة الراسبية

«كُن طفلًا مرة أُخرى لأنه فقط مع الطفولة تستطيع أن تكتسب عفويتك وستصبح جزءًا من فيضان الطبيعة من جديد».

أوشو

(1)

جنازته تتسارع باستعجال ملفت، وعيون صغاره شيعتها بحرقه مريرة، لم تفلح الدموع في إطفائها، تتبعته العبرات عند عتبة الباب لترنو إليه للمرة الأخيرة بحزن وألم، أيعقل أنه لن يرجع؟! عندها شعرَتْ بهوان ذلك الحزن البعيد منذ عشرين عاما مضى، عندما كانت تودعه في نفس العتبة وبنفس الدموع والحرقة، حين سفره الطويل للعمل، عندها كانت تبكي بطفولة وتصرخ منادية إياه، ويأبى العمر اليوم أن تبكي أو تناديه كما في الأمس، ومن نافذة سيارته كان يقابل ذلك الوداع الحزين بابتسامة ضحوكة، ونظرات حانية، تعبر عن قناعة لديه «كل شيء خير من عند الله... » تراه لينظر إليهم الآن بنفس النظرة الباسمة؟ هل يقول «كل شيء خير مادام من عند الله...».

(2)

و«بشر الصابرين... » تتردد كالصدى في أنحاء غرفته التي تزاحمت فيها المتلفعات بالسواد، وجثت رفيقة العمر المكلومة وبناتها الصابرات، وسُجّيَ الراحل للنظرة الأخيرة والوداع الأبدي. ربما ترددت هذه الكلمات على مسمع منه بقدر من الرحمن، إذ لم يكن ضعف سمعه بالأمر الطفيف، ولم تكن وخزات إبر الأنسولين من يد متلعثمة بالشيء البسيط، وضبابية النظر، ووهن النبض وغيرها بالمحن اليسيرة التي بإمكان أيّ كان أن يمر بها بجبين شامخ، وثغر باسم، وقلب راضٍ لا ينضب من الحمد. و«بشر الصابرين» كلمة استحقها واستحقت أن تُرفع في سماء نعيه.

(3)

لي مقامي الخاص في قلبه ومعزة لا تنتهي، فلي الحظوة عنده، والحنين والدعاء الخاص، والكنية المحببة، ولي أيضا كل ما يتمناه إنسان من إنسان؛ الاهتمام الخاص.

كان الأغلبية من أبنائه إن لم يكن الكل يمتلك نفس الشعور والاعتقاد بأنه الأهم لديه، فقد كان الكل منا له مكانته الخاصة في ذاك القلب الواسع، الذي شق غيابه أعينهم بالدمع المتدفق من شرايين قلوبهم، كبكره الذي رمى برأسه على صدر والده مستجديا لحظات أمن راحلة، وحوله بناته يلهجن بالدعاء، وشبلاه المتلثمان بالحزن يتأملانه بذهول:

هـل رحـل فعـلا؟ هـل سـتختفي تفاصـيله شـيئا فشـيئا مـن يومياتنـا المتكررة...؟

لحيظات تسابق نفسها حتى تم حمله خارجا للأبد... حانية يده، واسعا قلبه، باسما ثغره، حبه ليس حكرا على أحد.... فكونوا مثله.

(4)

تتسابق بناته الثلاث لفك رباط حذاء الجيش، ويتأملهن ضاحكا... ويتفحص قلقا وجها صغيرا حين اعتصره الألم لبلعه أدوية عشوائية ملقاة... شديد الحنو على صغاره، فلم تؤثر فيه طفولته القاسية التي ابتدأت بمقتل والده قبل ولادته بأيد غادرة، وحياه التقشف التي تجرعها، وركوبه البحر للعمل صغيرا، وترحاله في باكورة عمره بين البلدان بحثا عن الرزق ليهديه القدر أطفالا، أهداه معمرة بأكملها، ليهديه القدر مرة أخرى أطفالا من أطفاله، فيهديهم عطفا معينه لا ينفد... انطفأت شمعته، فأظلمت ضحكات تُفرح الأطفال من حوله، وصمتت حرية البراءة وجثت مشدوهة من سكونه المهيب... جدي الغالي فلتذهب في حفظ الرحمن فبعدك لن نرى وجها باسما لا يعبس، وقلبا كبيرا لا يغضب، ويدا معطاءة لا تمسك.. وباب درجك لن نقف عنده للحلوى، وكرسيك لن نقفز فيه بحرية، وألقابك الحلوة لن نسمعها أبدا، وتصفيقك الحار وترحيبك سوف يرحل معك للأبد... أحفادك.....

(5)

بعدك بقيت مذهولة.. فأين أنت؟

وسألت الجنون عنك: هل فعلا رحلت؟

أراكَ في كل الأرجاء.. في الكرسي عند المدخل... في المطبخ حين أطبخ، وعند أمي تستأنس بضحكاتك... وعند الشاي والكل حولك... وصدى مناداتك، وسوالف معتادة ومعادة ترويها بجمال أول مرة... وأخاف المواسم تأتي من دونكَ..... أبناؤك.

حوار في أعماق ريفية

أسماء سالم الهاشمية

من خلف أكوام الخوص والليف التي جمعتها، بعضها قد خمدت فيه النيران والآخر ما زالت مضطرمة فيه، ينتصب عودها النحيل، وحبات العرق تتساقط على جبينها الوضّاء، وقد ربطت وسطها وشمرت عن ساعديها واحتذت ذلك النعال الجلدي، بابتسامة نظرت إليّ وأنا أقلب رأسي يمينا وشمالا، أنظر حولي وأسألها عن حكاية هذا النشاط المفاجئ، رشقتني بنظرة حادة باسمة وقالت أعيش وأرضى، رحلة مصالحة، ألا تستحق كل هذا العناء والتعب.

أنا الآن أجيبها على رجائها الدامع الذي توسّلت فيه قوتي وشبابي، «ولكنك» برهبة سألتها دون استفهام حقيقي، أجابتني بسرعة: أعلم أنني أنثى، ولكنها استعطفتني كما استعطفت جدي وأمي وأبي من قبل. فهل أخون ثقتها؟ ولو كان هناك خيارٌ آخر لاستجبنا له.

بعد أن هدأ استغرابي وبدأ الموقف يتحول إلى شيء مألوف، تطرقنا إلى امتحانات الثانوية، فقد عهدناها من المتفوقات، سألتها بخبث وتحدٍّ: لا أدري صراحة لو التحقتِ بالجامعة هل ستكون إجازتك الصيفية هنا بنفس الثبات الذي اعتدناه فيك؟

أجابتني وهي متيقنة من الهدف: «قد يكون ولكن لكل مقام مقال، ولمَ لا؟ فلا أعتقد أن الجامعة تمحو الثوابت فينا، بل ستربي الإرادة والطموح والمبادئ إن شاء الله»

سألتني عن أخبار القلم والكتابة، أخبرتها عن جمود مؤقت بدأنا نشكو منه وبدأ يغزونا.

نقلتني بالنظر من الأرض إلى تلك السماء الشامخة، وقالت: «هل نتعلم؟».

فهمت مغزى كلامها فقد كانت تنشد إرادتي أن تعانق أعلى خوص النخلة وهو يتمايل فيميل بالنخلة مع كل نسمة هواء؛ ليعيدها متزنة بعد ذلك دون أن يحرك ثباتها. شعرت بالخجل حينها ولذت بالصمت؛ فكل الإجابات حتى في قواميس الفلسفة والحوار أغلقت ولم يبقَ إلا حديث النخلة.

تحرك بنا الحديث نحو أشجار الأمبا المانجو الظليلة في استراحة بسيطة ونحن نتذكر نساء حارتنا اللواتي جاهدن الحر والفقر والعوز والمرض، عندما كانت الواحدة منهن تلد تحت ظل شجرة، وتعود بوليدها والحطب على رأسها.

سرحنا بخيالنا عبر سنين قريبة لم يفصلنا عنها سوى رتوش المدينة وادّعاء التحضر، انتشلتني من صمتي وهي تقول بألم: يا ترى إلى أين سيقودنا ادّعاء الثقافة والتقدم؟ هل سيفقدنا خضرة القلب والأرض معا؟

طمأنتها بنبرة هادئة وأنا أشمّر عن ساعد الجِد: سنعود معا يدا بيد نكمل رحلة المصالحة مع الأرض ونودعها راضية باسمة.

أســـود

زهرة الراسبية

في السرير القَلقِ الدافئِ حُبٌّ يستفيقُ،
هو للناس تراتيلُ، وللشمس طريقُ.
للطفولة، تشرق الشمس خجولة؛
في خُطاها يَصغر الكون الكبيرُ ويضيق الأبدُ،
فلها الأرض غطاءٌ سَرمدٌ، ولها الدنيا سريرُ

أدونيس

بتخبط متسارع، مشى معتمدا على القليل مما تبقى له من القوة، التي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، تظهر الأشياء حوله مرة وتختفي مرة، فعيناه أيضا كانتا تستنفدان طاقتهما البصرية محاولتين التركيز بلا فائدة.

كان يدري أن ساعته البيولوجية ليست في صالحه، وقد وقفت أمامه كحارس محذرةً إياهُ أن ينتهي بسرعة، وإلا فكل شيء سوف يتوقف. تنفس بصعوبة، ومشى مترنحًا واعتمد في خطواته الأخيرة على حائط منزل ما، كان هدفه الأخير منذ مسافة أمتار منه، حيث بدأت لحظة نهايته.

طبع على الجدار قطرات دم نزفت من طلقة عشواء، تفسر أعلى درجة من درجات الجُبن، من رامٍ عجز أن يلاحق مجرمي القرية ولصوصها، وعرابيدها السكارى، ففجر شجاعته على كلب كان يحرس ناحية القرية من الغرباء المريبين، ومن الحيوانات الضالة التي تسعى إلى سرقة مواشي الناحية ودجاجها.

فمنذ اشتداد عظمه، سعدت تلك الناحية بتربعه على مهمة الحراسة بلا منافس؛ لاختفاء القطط الضالة والثعالب السارقة، إذ إن هذين العدوين، كانا يقضان مضاجع ربات البيوت اللاتي عانين كثيرا من اختفاء الدجاجات بسبب القطط، هذا إلى جانب اختفاء المواشي صغيرة السن بسبب الثعالب المفترسة، أما الشيء الوحيد الذي أزعج أهل تلك الناحية من القرية، فهو نباحه ليلًا إذا أحس بمرور أحدهم، إلا إنه بالرغم من ذلك، قلل من عدد الشباب الذين يسهرون آخر الليل، ويرجعون في وجه الفجر، فرجعتهم بوجود الكلب كانت فضيحة مدوية بسبب نباحه المزعج.

بأقصى جهد، نظر حوله، فرأى الظلام الدامس يهيمن على كل البيوت والمعالم من حوله، إنها ليلة المحاق، إذ لا يُرى أي شيء، الأمر الذي كان يسعده كثيرًا بهذه الليالي، حين ينطلق هنا وهناك، كطائر يعشق الحرية، ويجدد أحاسيسها، بمغامراته وانطلاقاته، فلونه الأسود الخالص كان ينسجم بتناغم فريد مع الليالي المظلمة، فلا إنسان، ولا حارس، أو شرطي، كان يستدل على وجوده أو يراه.

ذكرته هذه الليلة بأخرى بعيدة جدًا، كانت فيها أمه وحولها جراؤها في ليلة شتوية باردة، تحاول أن تعلمهم التآزر معا لتحدي الصعاب، ومنها البرد القارس، فكانوا ملتفين حولها، مطمئنين.

هل كانت الأم تدفئهم؟ أم كانوا هم من يدفئونها بفرائهم الناعم، إلا أن كرتين من النار ظهرتا فجأة من بعيد، تشقّان جلابيب الظلام المرتعشة، إنهما عينا ذئب مترصد جائع، يشتم رائحة جراء طرية، تغيير اتجاه الرياح في تلك الليلة، لم يُسعفه لمعرفة مصدر تلك الرائحة المغرية التي تثير فيه غريزة الافتراس المتوحش، فها هو يزمجر من بعيد محاولا اختراق حواجز الظلام، وما تحويه من ريح مثلجة.

لم تكن لحظة الخوف تلك هي الأولى، ولم تكن قفزة الأم وتصديها للذئب هي الأولى أيضا، ففي كل مرة يقترب فيها الذئب من بيت الخراب المهجور الذي كان يؤويها وجراءها، كانت تندفع نحوه لتشغله عن رؤية صغارها، فتهرب به بعيدا، حيث يتوه فلا يرجع، وترجع هي بعد حين مبتسمة؛ لتبعث الطمأنينة في قلوبهم الصغيرة، وكأن شيئا لم يحدث، إلا أنها في تلك الليلة المظلمة، التي اندفعت فيها كعادتها لتُضَيّعَ الذئب، لم تعد ثانية، ولم تظهر منذ ذلك الحين، ربما اكتفى الذئب بها كوجبة لليلة شتوية، وربما حملتها الريح بعيدا، المهم أنها اختفت وللأبد...

ظلت الجراء لأيام تنتظر الأم، وعندما داهمها الجوع، خرجت لتلسعها الشمس لأول مرة، مفتتحة حياة جديدة، يحفها الغموض، ويهيم الخطر على أرجائها، وكما عودتها أمها، فقد خرجت من جحرها كمجموعة من خمسة

جراء، كانت كباقة مشوقة تضيئها الطفولة النقية، أما ألوانهم فكانت بالتفصيل: جرو منقط بالأسود، والأبيض ذو عيون بريئة خلابة، وجرو بني فاتح ناعم هي الأنثى الوحيدة بينهم، وجرو أسود كظلام الليل، وآخر أبيض كنور القمر، وأخيراً جرو رصاصي كرماد خامد.

سمع أولاد الحي صوت الجراء الناشئة في البيت المهجور، وهرولوا نحوها، فكانت المفاجأة الجميلة التي ساقها القدر إليهم: جراء تسلب الألباب لروعة منظرها، ونعومة فرائها، كانت ودودة، وتتراقص بدلال أمام الصبية الصغار الذين بدأوا مغامراتهم في مطابخ بيوتهم؛ لجلب ما يُسكت أفواه تلك الجراء، بكل ما لذ وطاب، وتصل إليه الأيدي؛ لتبقى الجراء الصغيرة على قيد الحياة.

وتُظهر الأيام، ما تخبئه من مفاجآت محبطة، فعدد الصبيان بدأ يتناقص، للملل من الجراء التي بدأت تكبر، وضياء طفولتها بدأ يخفت قليلًا، فرجعوا إلى كرة القدم، معشوقتهم القديمة، كما تمت سرقة اثنين من الجراء، من قبل صبية الحارة المجاورة الذين يتصفون بالعدوانية وخشونة الطبع، ولم يبق إلا الجرو المنقط، والأسود، والبني.

كما بدأ الأهل يتذمرون من وجود جراء تلهو في طرقات الحارة هنا وهناك، فلم يتعودوا على وجود حيوانات بينهم، عدا القطط المشردة، وحيواناتهم المستأنسة، خصوصا بعدما تم اكتشاف تناقص المؤن من المطابخ من قبل الأولاد بسببها، لذا ابتعد الصغار عن الاقتراب من تلك الجراء؛ تجنّبا للعقاب المُهددين به.

ومن تلك المجموعة الكبيرة المتجمهرة حول الجراء اللاعبة بخفة، لم يبق سوى «دحّام» ذلك الصبي ذو الرأس العنيد، والعينين المتحديتين لكل شيء، والجسد الحديدي النحيل، الذي لا يمكن أن تراه يوما إلا وآثار المعارك شبه اليومية ترتسم إما على رأسه، وإما على إحدى رجليه أو يديه. كان عنيدا، فلم تستطع نصائح أصدقائه، أو تهديدات أمه أن تجعله يتخلّى عن مجموعة الجراء، فقلبه يحمل الكثير من مشاعر الرفق بالضعفاء، بالرغم من وجهه المُشَوَّه والمتباهي بأنواع الجروح.

تكبد «دحّام» مسؤولية الاهتمام بالجراء التي بدأت تكبر بسرعة، ففي خلال شهور بدأت تسير وراءه بانتظام، مفتولة العضلات، تتبعه باعتزاز، تزيده عزوة إلى جانب قوته المعهودة، فكان يمشي مزهوا بجيشه الذي يتبعه أينما حل، ولا يفارقه إلا بحلول الظلام، ودخول منزله ليلا للمبيت.

مع الأيام، بدأت تلك الكلاب تأخذ مكانة لا بأس بها في الحارة، إذ بدأت تطارد الحيوانات غير المألوفة، مثل القطط الجشعة، والثعالب المفترسة، وفئران المزارع. ولم يكن «دحّام» هو الوحيد الذي يمتلك جيشًا من الكلاب القوية التي يستعرضها يوميًا، بل كان العديد من الصبيان ممن هم في سن المراهقة يملكون مجموعة كلاب تفوق أحيانًا عدد كلابه، كما تكون أحيانًا موحدة الزي بالإكسسوارات الغريبة، وذلك بحسب مزاج المالك لها، ولم يكن «دحّام» له مزاج بالإكسسوارات وغيرها، فبدأت الشرطة تُلاحظ ذلك من خلال كثرة مرور الكلاب في الأرجاء، فلاحت فكرة لاستعراض العضلات، من خلال ملاحقة الكلاب وإبادتها، علَّ هذا النوع من الملاحقات يعيد لها

شيئا من هيبتها المفقودة، فبدأت حملتها العمياء التي لم تفرق بين الكلاب الضالة أو المسعورة والكلاب الحارسة للحارات.

في تلك الأثناء كان «دحّام» وغيره من الصبية، يحددون مواعيد لاستعراض القوى، من خلال مصارعة الكلاب، وغالبا ما يكون أصحاب كلاب المصارعة من الأعداء لـ«دحّام» نفسه.

بالنسبة لفريق «دحّام»، كانت الكلبة البنية سرعان ما تنسحب، أما الكلب المنقط فيكر تارة ويفر تارة أخرى، وهكذا حتى تنتهي المعركة، أما الكلب الأسود فهو الوحيد، الذي ينقض كالصقر على الفريق المعادي، بلا تراجع ولا يهمه إن كان يفوقه عددًا أو قوة، المهم بالنسبة له الحرص على عدم خذلان «دحّام» السيد المخلص؛ لذا فقد كان الفريق يفوز في أغلب المواجهات.

وكان ذلك في وقت الظهر إذ الأهل نيام، أما في وقت الليل، فقد كانت الكلاب تمتطي خيول الحرية، وتنطلق بمغامراتها إلى الشوارع، والكراجات والمزابل؛ لتكتشف العالم الواسع عن كثب، كانت سعيدة بحرية الأماكن، وخلوها من البشر وتزاحمهم، بيد أن هذه الفرحة لم تدم طويلًا، إذ بدأت الشرطة بملاحقتها، كما أنها جندت كل قواها لذلك، فتربصت على جوانب الشوارع وزواياها لأي كلب مار لتطلق عليه طلقاتها العمياء. كان أولى لها أن تخترق أجساد المجرمين الخطيرين على المجتمع، لكن الشرطة تناست ملاحقتهم والتحري عنهم، وانشغلت بالكلاب وسهرت عليها الليالي.

بدأت جرائمهم بالكلبة المسالمة «عسل»، وهذا اسمها؛ بسبب لونها البني الجميل، ولرقتها الأنثوية، ثم دار الدور على «دعبول» المنقط، وهذا اسمه؛ للدلالة على شكله المضحك، ومرحه المسلي، ولم تفلح بالعثور على

«أسود»، وهو الثالث، وكما ترون فلونه سيطر على تسميته.

كان لفقد الأخوة واحدا تلو الآخر شعور مرير، لا يزيله أي شيء إلا رؤيته لابتسامة «دحّام» المشاغب، ومشاركته في مغامراته التي لا نهاية لها. تفهّم «دحّام» وضع أسود الذي بقي وحيدًا؛ لذا جعله الصاحب في ألعابه، بما فيها كرة القدم، فكثيرًا ما يدخل «أسود» في المباريات مع «دحّام» على مستوى القرية، ولا اعتراض، بما أنه تابع لـ«دحّام» الشرس، كما كان الرفيق الدائم في رحلاته ومغامراته مع أصدقائه الصبيان، وفي الهجوم على المزارع، وانتشال ما لذ وطاب منها، فهو المراقب الوفي ذو العين اللماحة.

شكّل «أسود» جزءًا من شخصية «دحّام» في القرية ككل، كما كان «دحّام» كل شيء بالنسبة لأسود، وما زالت تقليعة مجموعات الكلاب منتشرة في ذلك الوقت، وما زالت الشرطة تناضل للقضاء عليها، إلا أن «أسود» وقف عقبة في طريق استعراض عضلات الشرطة، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه؛ لحدة ذكائه واستغلاله للونه الذي يخالط الليل، كما بدأ بعض المراهقين بالتذمر من الشرطة لعدم شمول «أسود» في قائمة المقضي عليهم، وكان ذلك طبعا بعد إبادة كلابهم المحاربة، ومنذ ذلك الحين بدأت الشرطة تركز على هذا الكلب الذي حاز شهرة واسعة في أنحاء القرية؛ لشجاعته، ولتفوقه على الشرطة في الهروب والاختباء ليلًا، مما زاد من فخر سيده «دحّام».

بشدة وخزت الطلقات العمياء جسد «أسود» الذي استند إلى جدار منزل «دحّام»، منهكًا؛ ليستفيق من سيل الذكريات المنجرفة؛ ليتذكر سبب مجيئه إلى هنا، وهو صاحبه المخلص «دحّام».

بصعوبة تشق الأنفاس، وقف يئن من ويلات الألم، كان يريد أن يرى «دحّام» ليريحه من ألم طلقات اخترقت جسده، حتى وصلت إلى قلبه المتعب، كان يعرف أنه بمجرد أن يراه، سوف تزول آلامه، لينام بعدها بسلام، لكن الدنيا ليل، والأبواب مقفلة، فكيف له أن يراه؟

أطلق عواء مجروحًا، تخالطه دموع مستنجدة تحترق شوقًا، لكن لا مجيب! فصَمَّم على عدم الاستسلام، فمشى مستندا إلى الجدار، ملتصقًا به؛ عله يحظى برؤية الصديق، أو حتى شم رائحته، إن لم يسعفه الحظ برؤيته قبل الرحيل.

أحس بقرب أجله، فزاد تخبطه في البحث عنه، وزاد نزيفه دمعًا ودمًا، كانت أمنيته في تلك اللحظة أن يكون «دحّام» آخر صورة تطبعها عيناه على قلبه في هذه الدنيا، كان يريد أن يغمض عينيه، وتكون صورة الصديق هي الأخيرة، فكل مساحة في قلبه مملوءة بحب «دحّام» بعد حب الخالق، وأخيرًا وبمعجزة ما، وجد فتحة في الجدار؛ لأعمال صيانة في بيت «دحّام» المتداعية جدرانه، فدخل منها، وبدأ يعوي بحزن وكأنه ينادي: «دحّام»، فوجد فراشه في ساحة المنزل الداخلية، لعله أحس بالبرد فدخل ليكمل نومته في إحدى الغرف، توجه إلى الفراش؛ ليتحسسه ويشمه باحثًا عن صديقه، فتوجهت عيناه إلى المطبخ المطل على ساحة المنزل الداخلية، فتذكر أم «دحّام» التي كثيرًا ما غضبت من تناقص وجبة الغداء، وبخاصة الدجاج واللحم بسبب «دحّام»، فبينما كانت الأم تستشيط غضبًا من تناقص غداء أبنائها الجوعى، العائدين من المدرسة، كانت عينا «دحّام» في مكان آخر، تبتسِمان وهي ترى «أسود»، وهو يلتهم كتل

اللحم الشهية بنهم، وتزداد ابتسامتهما، عندما يأتي «أسود» يهز ذيله، ويحني رأسه، تعبيرًا عن شكره عن الكرم الحاتمي للسيد..... ابتسم عندما رأى شقا في جدار المطبخ، فقد ذكره بالغدير الصغير، الذي كان يُسقطه فيه «دحّام» عدة مرات؛ ليغسله من أغبرة المغامرات، وأتربة الملاحقات، كان هذا الفعل يُغضب «أسود» إلى أن يخرج من الغدير، فيشعر بانتعاش الماء والنظافة.

كانت هذه آخر لقطة استطاعت ذاكرة «أسود» أن تلتقطها من خلايا المخ الراحلة، فقد توقفت ساعته البيولوجية، فخارت قواه، ليسقط مخضبًا بدمائه المتفجرة، بالقرب من فراش «دحّام»، فأغمض عينيه حزينًا إذ لم يرى «دحّام»، لكنه بإغماض عينيه، وبحلول الظلام فيهما، رأى صورة «دحّام» محفورة بعمق في قلبه، فابتسم من بعدها بهدوء، ونام نومته الأخيرة، وهو يحمد الله على حياته السعيدة، وصديقه المخلص، فارتسمت على ملامحه علامات الرضا عن كل شيء.

وفي الصباح كان «دحّام» يجثو بالقرب من «أسود»، والصغار حوله مذهولين، وغدير من الدموع يشق خدودهم المخدوشة، وها هو «دحّام» يدفن «أسود» وقطرات من دموع الحرقة تبلل تراب قبره، فأمسك مكان قلبه بشدة، كأنه يحاول تهدئة البراكين المؤلمة التي تثور فيه، وهو يرفع عينيه للسماء، طالبا من الله القصاص من الظلمة، والصبر على فراق الصاحب الوفي وأغمض عينيه ليتصور الفراغ الذي خلفه «أسود» وراءه.

سميرة بنت الجيران

ميّا هديب الحبسية

كما التماعة الفكرة تضج عيناكِ بالكلام والشعر في صمت. تمعنين النظر بابتسام وكأنما أنتِ في تخطيط دائم لأمر قادم، هذه أنت سميرة. تحملين صباحا عصا طويلة على كتفك ما درى أحد أي مأرب ومآرب أخرى كانت لتلك العصا، لكنها على كتفك في السابعة صباحا بعد تناول إفطارك؛ خبز عُماني وعسل. ومن ثم تنطلقين إلى حيث النخلات، توازنين السير بعصاك. كل شيء شهي في ظلال النخل في الضواحي، وماء السواقي لا يقاوم، والرمّانات الخضراء في متناول اليد وعين زارعها متوارية. بيوت الطين القديمة يا سميرة معظمها مهجور تقف على أطراف الطرقات مجاورة للعلانية والحياة الضاحكة حين كانت رائحة العتمة والخفاء في غرفها تشدك.. تعلمين أسراراها؛ لأنك حين تعودين عند مغيب الشمس كل مساء، كانت لطخة رمان على شفتك، وأحيانا تكسوك رائحة ثمرة المانجو أو الجوافة، وفي يدك قطعة ما مغبرة.. كسر وبقايا تجمعينها بشغف وتهملينها في اليوم التالي... يا سميرة.

وسميرة كان لون شعرها ذهبيا حين كانت طفلة، ثم تدرج في ألوانه: بني فاتح، بني داكن، بني يميل للسواد حين اكتملت أنوثتها. هذه سميرة

مراحل غنية تسعى للاكتمال. ولسميرة خمسة إخوة وأخت واحدة. مما منح أمها الرضا، فبنتان قد تدخلان الجنة إذا ما أحسن تربيتهما. «ارزقني بنتين لأدخل بهم الجنة يا الله» كانت أم سميرة تتمتم في الدعاء حتى رزقها الله سميرة.

تجيدين ملاحقة الرياح في العواصف، لذا حين كان يهطل مطر الصيف على القرية الواعدة تطلقين قدميك للريح.. لطالما كان مطر الصيف بقطرات كبيرة مرعدًا، يرمي بحبات البَرَد على الجدران والشجر، وغالبا يفر الناس للمنازل يراقبون التماع البرق في السماء الرمادية بيقين وإيمان في ليوان البيت ذي الشبابيك الواسعة جدا، حتى ليبدو الخارج داخلا، إلا أنت يا سميرة.. لك طريقتك الخاصة في اختبار اليقين؛ اليقين عندك ألّا تخاف سقوط نخلة هاوية بفعل ريح عاصفة في صيف ممطر.

اليقين أن تسابق الريح وتلقف حبات البرد تحت السماء المرعدة، كم أرعبتِ الجدة حين تباغتك هذه الشقاوة فتطاوعينها، وكم شغلت رجال بيتكم وبيتنا وبيوت الجيران بعمليات البحث عنك بين الأهوال، وغالبا كنت تسبقينهم للبيت بشعر متطاير ونشوة ظفر تضيء وجهك...

بكاء أمك وصراخها عليك كل مرة لم يكن ليغير فيك شيئا يا سميرة، الريح حذاء المغامرة حين كنت تسمعين دعاء «اللهم اجعلها أرياحا ولا تجعلها ريحا.. اللهم صيبا نافعا».. تؤدين صلواتك في الخلوات.

سميرة تشبه أربعين شخصا مثلها في هذا العالم، يخلق من الشبه أربعين وتبقى هي هي. كانت محظوظة؛ فقد عاشت في قرية بها أفلاج

ونخل ورمان، وشهدت مواسم أمطار دون انقطاع، ولم تعرف صلوات الاستمطار، وصامت حين بدأت تخفي غرتها تحت غطاء الرأس.

كما تشائين يا سميرة، تعبرين الطفولة بخفة البسطاء الراضين الذين حازوا السعادة كاملة، مشاغبة هذه أنت يا سميرة ولم يكن ذلك يشكّل مشكلة. عنيدة وبريئة صفتان لا أعرف كيف تكمل إحداهما الأخرى ولا تتناقضان. رغم لهفتك للذهاب للمدرسة فقد فوتِّ أول يومين لأسباب إجرائية ووصلتِ في اليوم الثالث. وكأنما دخلت بوابة الأحلام من باب الصف وجلستِ على مقعدك، أنت في الصف الثالث جهة الجدار المقابل للباب، فغرفة الدراسة مقسمة لثلاثة صفوف رأسية: كل تلميذين يتشاركان طاولة خشبية واحدة.

تلبسين قميصا طويلا كفستان، وبنطالًا واسعا وتضعين منديلا على رأسك، يجاورك في منتصف الفصل ابنة رجل ميسور الحال، لم تكن تذهب لمدرسة خاصة. ميسورو الحال يدرسون معكم وهم مثلكم غالبا. كانت خامة لباسها مثل لباسك، هي بذات اللون والتفصيل ولم يكن أحد ليلاحظ أنها ابنة رجل ميسور. على الطاولة وضعت قلم الرصاص والممحاة التي بشكل سيارة، تباهيتِ بها أمام أخيك صباحا، وتضعينها الآن جوار القلم بزهو.

المعلمة من الأردن تتكلم بلهجة لم تستطيعي استيعابها، وبدت جادة لحد يثير التوتر هي تلوّح بمسطرة في يدها. طلبت المعلمة من الطلاب أن يخرجوا للسبورة واحدا تلو الآخر ويكتبوا أسماءهم على اللوح

بالطبشور. توترتِ.. لا تعرفين كيف تكتبين اسمك، آه يا سميرة يبدو أنك فوتِّ درسا مهما في اليومين الماضيين. كانت المعلمة تنظر بحدة للطلاب، وهم يخرجون الواحد تلو الآخر بتردد يكتبون أسماءهم، خطوط مرتعشة غير متصلة وصغيرة جدا في وسط اللوح ومن ثم يمسحونها. لم تكن المعلمة تهتم بأخطائهم، كانت تزعق فيهم لتثبت سلطتها، وربما أرادت أن تفهمهم أن ما يتعلمونه مهم وستسألهم عنه واللوح هو الفيصل.. ما أدراك أنت بكل هذا؟ كنت تراقبين بصمت شابكة يديك إحداهما تضم الأخرى كما هو مطلوب من المؤدبين في الصف. وحان دورك يا سميرة. تمسكين الطبشورة للمرة الأولى في حياتك وتواجهين اللوح للمرة الأولى في حياتك، وقد فوت درسا مهما جدا. نظرت للمعلمة فبادلتك بنظرة جادة: اكتبي.

توجهت لطرف السبورة وبدأت تشكلين أحرفا لا علاقة لها باسمك كبيرة جدا، من أول اللوح لآخره وبعلو ما استطاعت يدك وقامتك الصغيرة من امتداد، حتى إذا وصلت نهاية السبورة ختمت الاسم وتراجعت للوراء تطالعين ما كتبت.

انفجرت المعلمة ضاحكة: ما هذا؟ كل هذا اسمك؟! ما اسمك؟

- سميرة.

وسميرة كانت تحب المدرسة، كان شعورا سائدا ومتوفرا وقتها وسميرة امتلكته، احترفت كسب محبة الناس بفعل اللامتوقع. احترفت فعل اللامتوقع، كأن تكتب اسمها بحروف واضحة حين يتردد الجميع.

تحترفين الدهشة أيضا يا سميرة، هذا الشعور المتألق، الذي يسري في العروق، فيثير ابتهاجا، ويتبدى في العيون بفرح وكمٍّ كبير من الأسئلة.

الدهشة حين تمسكين بالجرادة بعد ملاحقة، والدهشة حين تُدخلين الجلول في الحفرة وقد أصاب جلولاً آخر في لعبة تحدٍّ مع ابن عمك، وحين يُؤتى بفاكهة جديدة، وحين تقفزين لبركة الماء على غفلة من عيون أمك وتحذيراتها، وحين راقبت أخاك يعبر النفق المظلم للفلج بسرعة خاطفة، وكما شعرت لحظتها وأنت تقفزين منتشية بالنصر الجميل لأخيك. الدهشة التي تحدث كل يوم، وأجمل الدهشة، تلك التي تحدث للمرة الأولى. يا سميرة، حين ذهبت لزيارة الخالة في مسقط وكنت على مشارف الأنوثة.. «أريد أن أرى البحر قلتِ»، ما عرفتِ البحر قبلا، كانت الجبال والحقول المبللة بالمطر وهيبة النخيل وراءك. وحده البحر استحق وقوفك دون حراك، تراقصت الموجات لنظرتك المشدوهة وطفا بامتداد الأزرق صمتك.

حيث الدهشة ممكنة، وقليل من المشاغبة لا يضر، والضحكة تبدأ أول النهار وتمتد لآخره، ابقي سميرة.

تاريخ ميلادي

وضحى المسرورية

لم يزل مجلسي على تلّي الرمليّ
يصغي إلى أناشيد أمسي
لم أزل طفلة سوى أنني
قد زدت جهلا بكنه عمري ونفسي
ليتني لم أزل كما كنت قلبا
ليس فيه إلا السّنا والنقاء
كلّ يوم أبني حياتي أحلامًا و أنسى
إذا أتاني المساء
في ظلال النخيل أبني قلاعا
وقصورا مشيدة في الرّمال

نازك الملائكة

ما أسرع مرور الأيام والسنين وقد تجاوزنا الأربعين وانفرط عقد السنين، وما زالت صور معتّقة برائحة الماضي عالقةً في أقبية الذاكرة..

صور لنا أنا وأنتِ معا لا نفترق... في البيت ونحن ننشر صفحات الدفاتر

وننثر أحلامنا ونرسم الأميرات بفساتين منفوخة، وعلى رؤوسهن تاجات تتلألأ فيهن حبات العقيق، يخطرْن في ساحات القصور ويركبْن العربات التي تجرها الخيول، كل هذا ونحن مستلقين على أرضية المطبخ الباردة عند أشولة الأرز والطحين وزكائب التمور.. وإن مللنا الحياة في جنبات القصور رمينا الدفاتر والأقلام الفرنسية الزرقاء الجافة، وأتينا بقطع من الفحم وخططنا أرضية الأسمنت العارية من البلاط بمستطيل به ثمانية مربعات، ولعبنا «الكبيه» ولا نسأل عن الوقت كيف يمضي.

وصورة لنا في دروب الحارة عندما تتقدمينا ونحن من خلفك ماضون لا شقاق ولا فتن، وبالقرب من دكان أشرف وأنتِ تنتظرينني بعيدا عند منارة المسجد؛ خوفا من الهندي القصير «سوداسن» الذي كان يثير الرعب في قلبك وهو يخبط قدمه على الأرض بقوة متعمدا حتى يخيفنا، ويرفع حاجبيه ويضيّق عينيه الصغيرتين فتهربين أنتِ وأقف أنا مكاني؛ متحديةً إياه أن يأتي بالمزيد مما يهان به الكرام. وصورة أخرى ونحن نركض ونطلق سيقاننا للريح رافعات أثوابنا إلى حلوقنا ونتلفّت إلى الوراء ويعلو صوت لهاثنا وزعيقنا؛ محاولات أن ننجو من الثور الهائج المنطلق من ناحية دكان الحارة، ونغلق على أنفسنا ضلفتي الباب وقلوبنا تخفق من الذعر ونتصور أنه سيقتلع بابنا بقرنيه.. وأخرى ونحن هاربات من الخروف الأسترالي ذي الوجه المائل للون الوردي الذي يلحق بنا، ونتعب من الجري ونقعد في الرمل وندفن رؤوسنا في حجورنا ونغمض أعيننا؛ ظنًا منا أننا إن لم نره فلن يرانا، وتنطلي عليه الحيلة فيدور حولنا دورتين ثم يعود أدراجه.

وصورة لنا في المدرسة وأنتِ تزاحمين البنات في المقصف من أجل أن تشتري لي وجبة خفيفة في منتصف تلك الظهيرة، وأنا أقف متّكئةً على الجدار أراقب الحركة البطيئة لذلك الصف الطويل الذي يتلوّى من شدة الجوع. وصورة أخرى يضيع مني مصروفي وأنتظرك لأشكو إليك جوعي، فتجودين عليّ بوجبتك وتتظاهرين أنك لا رغبة لك في الطعام... وصورة لنا معا وأنتِ تقومين مقام الواعظ، وتخبرينني أن يوم القيامة قريب. وفي غمرة الدهشة أُخرج طرف لساني وألعق به شفتي وأترك فمي مفتوحا عن آخره؛ وأغمض عيني وأفتحها بشكل لا إرادي وأفكر، وربما لا أفهم ما الشيء الذي عليّ فعله حتى لا يأتي يوم القيامة؛ فأنا لم أشبع من اللعب بعد..

وصور وأنت تقرئين المجلات التي كان يشتريها والدي في كل مرة يذهب فيها إلى مسقط، ويؤمن إيمانا راسخا بأنها طريق المعرفة، والقصص والكتب التي كانت تجلبها لوزة معها من الجامعة: «أمريكا الجنة والنار» وكتاب «السفاحون»، وتعيدين سردها لي، ونبحث معا عن فضولي، ونلعب لعبة الحظ عندما نفتح مجلة ماجد على صفحة هواة التعارف، ونختار اسما عشوائيا، ومحظوظ من يقع اختياره على صورة لطفل ذي وجه جميل. وصورة أخرى وأنت تعدّين لي الساندوتش باللحم؛ لأتناوله في الفسحة وتلفّينه بالمناديل الورقية التي تلتصق بالخبز، وتتناثر منها قطع اللحم ويصبح من العسير أكل الساندوتش أمام الطالبات، فأشعر بالحرج وأرميه بعيدا عن عيون المتطفّلات... وصور أخرى عديدة وأنت معلمي إن استعصى علي فهم الدروس، وإن وقعتُ في مشكلة وجدتك أم خليفة التي كانت تجود بحل

المشكلات في مجلة «زهرة الخليج»، وأنتِ منال العالم إن تضورت جوعا وتاقت نفسي للحل، فأصابع يديك تلتف بالحرير. وإن كان الكيك ملتصقا بقاع القالب، فإننا نحتال عليه بالتزيين بأصابع الكاكاو، والشكلمة أقسى من الحجر الصلد وإن كان بعض الحجارة ليتشقق منه الماء. وكنتِ قاموسي ودائرة معارفي، وجيبًا عامرًا بالمال إن احتجتُ إليه، وكنتِ دائما تقولين خبّئ قرشك الأبيض ليومك الأسود، أذكر تلك العلبة المعدنية بيضاء اللون المزينة من أطرافها بأزهار وردية، والتي خلت من قطع الشوكولاتة وغدت حصالة تجمعين فيها النقود من فئة المائة ومائتي بيسة، إلى أن امتلأت فكنا نتندّر عليك، ويمازحك فيصل بقوله: «ستشترين بها «الغتال»» وهي مزرعة نخيل يضرب بها المثل لاتساعها.

وصورةٌ وأنا يغمرني الفرح في ليلة زفافك، وأزاحم المدعوات لأكون بالقرب منك، وكنت أخطر أمام الجميع حاملة على رأسي مجمرا تضوع منه أطيب الروائح، وأمسك بيميني جهاز التسجيل تصدح منه أغاني الفرح، ونتسابق أنا وإيمان؛ ليكون لنا شرف مصاحبة العروس في الزفة، وعندما وصلنا إلى عتبة الباب كانت صدمتنا لا تصفها الكلمات؛ فقد اكتظت كل السيارات بالنساء ولم يبق لنا موضع قدم، فأُغلقت الأبواب دوننا فلم نر إلا وصفّ السيارات ينسلُّ من أمامنا الواحدة تلو الأخرى، ويعلو زامورها تحية للعرسان. التفتُّ إلى إيمان والتفتتْ إلي وابتلعنا خيبة أملنا؛ فالعروسة للعريس والجري للمتاعيس، عدتُ إلى البيت ووضعت المجمر وبالقرب منه المسجل، وذهبنا

مشيا على الأقدام إلى بيت العروس، ننتظرك هناك وكأنما لا يمكن لأحد أن يعرف ما تعرضنا له قبل قليل...

وصورة أخرى في ليلة ماطرة بعد منتصف الليل وعيني على شاشة هاتفي الجوال أنتظر مكالمة من زوجك تطمئنني عليك وأنتِ تضعين طفلتك الأولى.

إن جئتَ يوما تسألني عن أختي فسأحدثك عن طفلة عنيدة، وامرأة لكل المواقف، فهي خلاصة الأنوثة والوقار والحكمة والهدوء والقوة والنظام والرزانة وحسن التدبير....

كبرنا وما زالت هذه الصور لا تفارقني فأجد نفسي أدير كؤوس المحادثات والحوارات بيني وبينك، وأناجيك وأبثك ما في نفسي، وأعود طفلة صغيرة أحتفظ بأسراري لأخبرك بها أنتِ دون غيركِ.

كثيرة أنا بكِ يا كوثر قليلة من دونك...

شجرة الخوخ

د. مريم طه

تتدلّى ثمار شجرة الخوخ الشهية في حديقة «أم إبراهيم» بصنعاء الجميلة، منتظرةً قدوم بضع أُسرٍ مصريةٍ، تعوّدت التآخي، والاستمتاع بالصحبة الطيبة في كل جمعةٍ في حديقة أم إبراهيم. شجعهم على ذلك جو صنعاء الساحر صيفا وشتاء، وكرم السيدة أم إبراهيم التي تفتح لهم أبواب بيتها وحديقتها الغنّاء، لا يزعجها ضجيج أطفالهم ولا التهامهم لطيب ثمار أشجارها.

جمال طعم الخوخ الطازج في فم أكثر من عشرين طفلًا قد شغلهم عن شغبهم، وألهى جوعهم المضني المنتظر انتهاء «الحاج محمد» من شواء الدجاج.

كان جوع الجميع كبارًا وصغارًا ملتهبًا كالجمر الذي يحمل الدجاج، منتظرا اكتمال الشواء بنجاح؛ ليتحلق الجميع حوله ويبدأ الالتهام اللذيذ.

بعد انتهاء الغداء، تأتي فقرة توزيع الحلوى من يد الحاجه علوية.. الحاجة علوية لم تنجب حقا لكنها كانت أمًا لكل هؤلاء الأطفال.. تحضر لهم علبة من شكولاتة كتاكي ذات الغلاف الأحمر، وتوزع عليهم عقب الغداء.. تقاطع التوزيع الحاجة فايزة:

– أنا عاوزة اتنين.. واحده ليا وواحدة للي في بطني.

و تشير ضاحكة إلى بطنها المنتفخة الحاملة لـ(منى) متعجلةً قدومها إلى الدنيا، فتضحك الحاجة علوية، وتعطيها ما شاءت وربما أكثر.

ثم يأتي لعب الأطفال بالكرة، ونطّ الحبل بعد الأكل، وشغبهم وعراكهم، لتنتهي الجمعة الجميلة فيستقل الجميع سياراتهم عائدين إلى بيوتٍ غمرها الدفء، منتظرين قدوم جمعة جديدة بعد أسبوعٍ مقبل من العمل؛ حتى تضمهم الحديقة من جديد.

لا تدري مريم لماذا أغارت العراق على جارتها الكويت؟! سألت أمها حينها ما علاقة اليمن بتلك الحرب المشؤومة؟ ولماذا سنغادر اليمن ونترك حديقة أم إبراهيم؟ أجابتها أمها أن عملهم قد انتهى على إثر تخلي الكويت عن إدارة المستشفى التي كانت وهبتها لليمن، والتي يعمل بها كل هؤلاء المصريين. وأصبح لزاما على الجميع المغادرة. لا تنسى مريم قط كيف باعوا كل متاعهم، وجهزوا أمتعتهم، وغادروا اليمن السعيد في غمضة عين.

ما زالت شجرة الخوخ في حديقة «أم إبراهيم» تتساءل أين ذهب الجمع؟ ولِمَ تفرقوا؟.. يوحشها ضجيج الأطفال، والتهامهم لثمارها.. تعاقبت الحروب التي لا ذنب لأحدٍ بها وتفرقت الجموع على غير نية.

وما زالت ذكريات اليمن السعيد متشبثةً بتلابيب عقل مريم رغم تجاوزها الثلاثين، ومعيشتها في أكثر من بلد، وكلما قضمت ثمرة خوخٍ تغمض عينيها؛ لتشم في رائحة الخوخ رائحة ذكرياتٍ مضت، وتحلم أن يعود اليمن سعيدا كما كان، وتعود؛ لتزور أرضًا شهدت خطواتها الأولى مُفتشَةً بين منعطفات شوارع صنعاء عن السيدة الكريمة أم إبراهيم.

مريم تنتظر وشجرة الخوخ تنتظر.. فهل تلتقيان؟

رسائل

سمية المعمرية

حينَ كُنا صغارًا

نسابقُ كلَّ الفراشاتِ

بالعدوِ خلفَ الرياحِ بطيّارةٍ من أملْ

نعتلي عرشَ أحلامنا حينَ كنا صغارًا

نهجّي الحياةَ ونلعبُ

منْ كانَ يَكذِبُ يرحَلُ عنَّا

وأصدقنا من يصيرُ البطلْ

نَغرِفُ الشمسَ نحضرُ عرسَ الزهورِ ونشربُ قنينةً من عسلْ

قمر صبري القاسم

لطالما كتبت رسائل كثيرة لأمي في طفولتي، احتضنت قلمي كثيرا في ذلك الزمن، ولم يكن لي صديق غيره.

مشاعري الطفولية البريئة لم أكن أجرؤ على التحدث بها، وكان من وفاء قلمي أن يكتبها على ورقة صغيرة، أضعها داخل خزانة الملابس الخاصة بأمي، وحين تراها تضحك أحيانا وتغضب أحيانا أخرى، فلقد أسرفت في الكتابة من أجلها، رسائل حب، رسائل اعتذار عن خطأ بدر مني، رسائل كثيرة

لا عنوان لها ولا جدوى منها سوى شيء واحد، هو أن قلبي الصغير كان يمتلئ طاقة حب للكتابة، ولا أحد سيستقبل تلك الطاقة بحب سوى أمي...

أذكر أنني مرة، بل مرات عدة أزعجتها إلى أن ضاق قلبها مني... لم يكن قصدي إزعاجها لكني طفلة لا تفقه معنى البر بالفعل والقول.. البر عندي باعتذاري عن أخطائي الطفولية المكتوبة على الورق في رسالة عنوانها قلب أحمر..

أزعجتُها فغضبت مني ورحت أبكي بصمت. على ورقتي الصغيرة بحجم كفي أو أكبر قليلا كتبت فيها: «أنا آسفة يا أمي فقد رفعت صوتي عليك دون قصد مني.. أنا أحبك يا أمي».

كنت أتردد أن أضعها في البريد.. أقصد خزانة أمي، أتردد لأنها ستمزق الرسائل بعد أن تقرأها وتضحك..

أمي لمَ مزقتِ تلك الرسائل؟

لمَ لم تحتفظي بها؟

ولو أنها كانت تافهة بالنسبة لكِ.. لو أنها بقيت إلى الآن لعادت ذاكرتي إلى أشياء أكثر جمالا... لكنت الآن كاتبة.

لو أنني لم أُهدِها لك في ذلك الوقت كنت سأحتفظ بها..

وأهديتها لك الآن وأنا بعمري العشريني؛ لأضحك وتضحكي؛لأريها أبنائي في الغد؛ لأزرع في قلوبهم حب القلم، حب الأم، حب الحياة بأكملها بسبب ورقة وقلم!

أمي أين تلك الرسائل؟

يوميات

وضحى المسرورية

(1)

وضعتُ رداء أمي المضمّخ برائحة الورس الذي اعتدت أن أتوسّده في زمني الأول، وألقيت برأسي المثقل بهواجس عالم المدرسة الجديد، وعلقت عيناي على الهالة المضيئة المحيطة باللمبة البرتقالية المثبتة فوق باب المخزن القديم، وتناهى إلى سمعي صوت قادم من إذاعة «بي بي سي» من الراديو المعلق بسيور فوق وتد مغروس على الجدار، وصوت المذيع يعلن: «هنا لندن» بعد دقات ساعة بيج بن الشهيرة.

(2)

استيقظت على صياح الديك واقفا على سعفة النخلة، وثغاء الشاة في الحظيرة التي تتوسط فناء البيت يملأ آذاننا، عبثا حاولت أن أعود إلى النوم لكنني لم أتمكّن من اصطياد النوم، فتربعت في الفراش وأنا أرى أخي يتسلل خفية؛ ليكون له السبق في قطع ورقة اليوم السابق من دفتر الرزنامة المعلّق على الحائط قبل ذهابه إلى المدرسة، وأختي تتناول فطورها على إيقاعات أصوات تزمير الباصات ونداءات الطلبة؛ استحثاثا للمتأخرين من أصحابهم.

(3)

حينما حان موعد ذهابي إلى المدرسة في الفترة المسائية ارتديتُ بمساعدة أمي زي المدرسة: مريول حليبي مصنوع من قماش البوليستر بياقة بيضاء (تم تبديل لون الياقات والأحزمة إلى اللون البني في السنوات اللاحقة) وصف من أزرار معدنية في الجزء الأمامي وحزام أبيض اللون وبنطال أبيض، وقامت أمي بتضفير شعري بعد أن أغرقته بزيت النارجيل من علبة معدنية خضراء عليها صورة ثمرتي نارجيل، وعقصت أطرافه بشريط أحمر، وألبستني الحجاب غير مبالية بكمية الدبق في شعري، فكان حجابي مصنوعا من الشيفون به أطراف باللون الوردي، نعقده من الخلف، وأحيانا نبالغ في التأنق فنقوم بعقد أطرافه من الخلف وفوق الرأس عقدة أخرى على شكل ورده نسميها «تحجيبة الجمعية الصحية».

أما حقيبتي فكانت دبلوماسية تقليدية مصنوعة من الجلد المدبوغ، لونها رمادي غامق، مستطيلة الشكل، لا يوجد بها ذراع للإمساك بها، فقط تحمل على اليد ولا يوجد بها جيوب، فيها خمسة أماكن لوضع الأقلام، والأدهى والأمر بها رقم سري لا تفتح إلا به هو (1 0 1) وغاب عن ذاكرتي في زحمة الأحداث، حقيبتي لم يكن لها مثيل إلا حقيبة أبي التي كان يحملها في أسفاره.

(4)

كنا ننتظر باص «بوخالد» عند مئذنة المسجد، كان له شعر بني مجعّد طويل يصل إلى منكبيه، وعينان ثعلبيتان ماكرتان، ووجنتان بارزتان. كان طويل

القامة، ناحل الجسم على شاكلة الرعاة في المسلسلات البدوية، ويضع على يمينه عصا طويلة، يضرب بها من تسوّل له نفسه العبث بالمقاعد الجلدية المهترئة التي يبالغ في الحفاظ عليها.

وأول ما نركب الباص نصطف نحن البنات الصغيرات على المساند، ويستخفنا الطرب، ونبدأ بترديد الأغاني في طريق الذهاب والعودة من وإلى المدرسة، فيستمع لنا «بوخالد» على مضض، وأحيانا يكيل لنا السباب، ويهددنا بعصاه:

وكان من وصلاتنا الغنائية:

يا بنات يا بنات

آه.. آآآه

أبوكم مصري

آه.. آآآه

جالس على كرسي

آه.. آآآه

بيعد فلوسه

وأخرى...

باص باص تبصينا

ويوم العيد تعشينا

تعشينا فاصولية

واللحمة الماكولية.

(5)

وقف الباص بالقرب من بوابة المدرسة، أمسكت بثوب أختي، وترجلتُ من الباص، مررنا بمجموعة من النسوة كن قد افترشن الأرض ببعض البسط والحصر، ووضعن بعض المأكولات للبيع، سطول بها مشروبات مثلجة، وقدور بها بيض مسلوق، وصناديق صغيرة بها أنواع من الحلويات المضغية والمنعنعة، والخبز وأكياس البطاطس والبفك.

دخلنا إلى المدرسة، وأدهشني عظيم بنائها واتساع مرافقها وأشجارها الخضراء، ودخلنا من باب الإدارة، وجمعونا في ردهة المسرح ريثما تأتي المعلمات بالقوائم لتوزيعنا في الصفوف. جلتُ بنظري على البنات، ورأيت فتاتين، إحداهما ذات جمال ملفت، بعينين دعجاوين، وحاجبين مقوسين، وأنف دقيق، ووجهها الأبيض، وشعرها الناعم المسترسل على جبهتها. وأخرى، على الضدّ تماما من صديقتها، إذ كانت سمراء، وبأنف أفطح، وشعر أجعد، وجسم مدور بدين، تتودد لصديقتها لإصلاح عقدها الذي كانت قد انفرطت حباته، تعجبتُ من ذلك الانسجام البادي بينهن رغم كل ذلك النقيض، فعلمتُ في وقت مبكر من عمري أن الجمال لا يستقيم إلا بمجاورة القبح، وللقبح فضل على الجمال في إظهاره، فلولا وجود حصة لما انتبهت لجمال نورة.

جاءت أبله «زكية»؛ امرأة ثلاثينية متوسطة القامة، بيضاء ذات جسم ممتلئ، تتراكم الشحوم على بطنها وجانبيها، ووجهها محتقن بالحمرة، لها عينان حادتان، وحاجبان مزججان، وأنف صغير. ترتدي ثوبا أحمر مشقوقا من الجانبين يكشف عن ساقيها، وتضع على رأسها إيشاربا صغيرا. وقامت بنداء

أسماء الطالبات، فشعرت بسلطانها وسطوتها على عقولنا وقلوبنا، فنادت اسمي فلم أقوَ على التبسّط في الحديث معها فلزمتُ قواعدي.

وانضممت إلى الشعبة الأخرى، وإن لم يكن اسمي بها مع أبله «تايا» معلمة سودانية ترتدي الثوب السوداني التقليدي، إذ تلف قماشا طويلا يصل إلى أربعة أمتار ونصف فوق فستان بسيط يبدو متناسقا، ولا تخلو قدماها من نقش الحناء، لها وجه أسمر داكن مستدير يطفح بالسماحة والحنيّة.

(6)

لم تنتبه أبلة «زكية» لغيابي عن الصف في اليوم الأول، وفي اليوم التالي أخذت تبحث عني في الصفوف المجاورة. كنت جالسة بالقرب من ابنة عمي أستعرض معها بعض أدواتي، وأريها قلم الرصاص بحباته المبرية، حينما سمعت صوت أبلة «زكية» تناديني وطلبت مني الذهاب معها، فأَمسكت بحقيبتي وتصاعد الدم إلى وجهي، وامتلأت عيني بالدموع، وادخلتني صفها، وأشارت إلى المقعد الثالث على يسار السبورة. فدخلت متثاقلة وجلست وعيني مثبتة على الباب، فنادتني بعد قليل بلهجتها المصرية: «يالله يا وطحه اطلعي اكتبي عالسبورة»، فأَمسكت بحقيبتي في يدي اليسرى، وسمعت إحدى الطالبات تتندر عليّ بقولها: «الشنطه ما يشلوها». أخذتُ الطبشور وكتبت الحل، وركضت بكل قوتي هاربة من الصف، ودخلت على أبله «تايا» فركضت أبله «زكية» في أثري، وأرجعتني إلى الصف، فتلطفت بسؤالي عن سبب بكائي، فأخبرتها أنني أريد أن أكون مع بنات عمي، فأسرّني تحقيق مرادي وقويت شوكتي بوجودهن معي.

دموع حمزة

رقية عبد اللَّه الراسبية

«وحدها الطفولة تقول ما تعنيه،

وتعني ما تريد، وتريد ما تريد»

غادة السمان

نظرت المعلمة إلى عينيه الواسعتين، وانحنت نحوه بلطف، وهي تقول: «للمرة الثانية تنسى أدوات الرسم يا حمزة».. نظرت إليه بغضب لتحسم الأمر.. ولكن نظراته البريئة أسرت قلبها، فأقبلت إليه بشيء من الحنو واللطف، وقالت: «أنت لا تحبني يا حمزة، فلو أحببت معلمتك لما توانيت في إحضار أدواتك»، وأردفت قائلة: «المحبة كالشجرة تماما يا حمزة، كلاهما يحتاجان للحرص والاهتمام كي ينموا». أجاب التلميذ الصغير: «لا يا معلمتي، الأمر ليس كذلك، فأنا أحبك وأحب حصة الرسم، ولكن..»، ثم طأطأ رأسه في حزن، تفهمت المعلمة الأمر بعد أن رأت دموع عينيه، وسمعت نبضاته، ولاحظت رجف يديه الصغيرتين. فقالت بصوت يغمره الحنان وهي تربت على كتفه: «اجلس يا حمزة لقد

سامحتك»، ولكن حمزة أمسك يدها في براءة وقال: «هل تسمحين لي أن أخبرك بما حدث معنا أنا وأخي حازم؟». هزت المعلمة رأسها موافقة.

وفي وقت الاستراحة في مرسم المدرسة، دخل حمزة وأخوه حازم المرسم.. التفتت المعلمة لترى طفلين قريبين من بعضهما بعضًا في الطول والملامح، وأشارت إليهما بالاقتراب أكثر. بدأ حمزة يسرد ما حدث معهما أثناء لعبهما لعبة كرة القدم أمام منزلهما، وكيف أنه رمى الكرة نحو سيارة جارهم، وبالتحديد نحو شاشة سيارته الزجاجية مباشرة فهشمتها تماما، قاطعه حازم قائلا: «لقد صعق جارنا، وغضب غضبا شديدا، وأخبر والدنا بما حدث وأخبره أن هذه السيارة سيارة صاحب الشركة التي يعمل بها، وأنه لا يملك المال لإصلاحها، أعطاه والدي مبلغا من المال لا نعلم قدره، ولكنه كان كل ما يملك»، وهنا قال حمزة بانكسار شديد: «كيف لي أنا أسأل والدي ثمن أدوات الرسم، وأنا لم أجرؤ أن أطلب منه مصروفي يا معلمتي».

احتضنت المعلمة تلميذها الصغير في حنان، وفكّرت للحظات، وقالت: «خطرت ببالي فكرة»، وسألت الأخوين: «هل تصليان صلاة العصر في المسجد؟». أجاب حازم: «نعم معلمتي، فمسجد الحي قريب من منزلنا»، قالت المعلمة: «إذن لا تخرجا من المسجد بعد الصلاة مباشرة، بل امكثا فيه قليلا للدعاء، اسألا الله أن يفرج على والدكما، وأن يرزقه من حيث لا يحتسب؛ فالله هو الرزاق، وهو الرحمن الرحيم.. الجواد الكريم»..

بعد أسبوع دخل الأخوان مرسم المعلمة ليزفا لها الخبر السعيد، وأخذا يرويان لها ما حدث في المسجد، تسقط الحروف من بعض الكلمات من فرط سعادتهما، والمعلمة تستمع باهتمام وتحاول جاهدة التركيز، لعلها تدرك ما حدث. فهمت منهما أن إمام المسجد لاحظ وجودهما في زاوية المسجد كل يوم، وكان كثيرا ما يسألهما عن سر المكوث، وبالأمس أصر عليهما كثيرا فأخبراه بالسر، فقرر الإمام التصرف، وجمع مالا من أهل الحي لمساعدة والدهما، لا يعلم الطفلان قدر المبلغ، كالعادة، لكنهما تأكدا أن المبلغ لا بأس به من تلك الابتسامة التي ملأت وجه أمهما.

في حصة الرسم في الصف الثالث الأساسي رسم حمزة شجرة خضراء كبيرة، وأخبر معلمته بكل طفولة وبراءة أنها شجرة المحبة.

أبو زيد الهلالي

ميّا الصواعية

(1)

أيها الفارس المغوار، هل لك أن تصدقني الحديث وتخبرني:

كيف استلت يدك أرواحهم؟

بم كانت تحدثك نفسك حينها وأنت تبعثهم إلى الخلود؟

كيف تجاوزت وجه أختك الشاحب، وهي تركع أمامك تلفها سلاسل الحزن والخوف والرجاء؟

هل كان النور ينبعث في روحك من جديد حين لا يكون هناك بطل آخر سواك؟

ما عرفتُ فيك إلا الشهامة والإقدام، وقد أُخبرتُ أنك بكيت ذات يوم وسالت دموعك حارقة حين رأيت طفلة يشتد بها الألم فانتصرت لها، كما أُخبرت أن الحب تسلل إلى قلبك ونبض به، والحنين سَيَّرك أياما وليالي طوالا؛ لموعد لقاء خاطف.

من أنت أخبرني؟ فك طلاسم الحيرة في نفسي، كيف يجمع إنسان هذه التناقضات في صورة رجل قادم من بلاد الأساطير؟ ما زالت ملامحك التي

تخيلتها، تجول بضبابية قاتمة في نفسي المتلهفة لمعرفة الحقيقة المختبئة بين كلمات الحكاية التي سمعتها بشغف مرارا في صغري.

(2)

وحده الصياد الماهر منا يتمكن الإمساك بأبي زيد الهلالي، تلك الحشرة الطائرة يكسوها اللون الأسود مع ألوان صيفية مبهجة، تغرينا للحاق بها بين الياسمينات والشجيرات المتنوعة المنتشرة في مزارع النخيل. أقدامنا الصغيرة تنزلق بين السواقي التي يندفع عبرها الماء، نتخطى بعض السدود المُعَدَّة من الأقمشة والحصى والفاصلة بين ساقية وأخرى. ترتفع بعض السدود وتبدو مغطاة بالطين الزلق، من يستطع امتطاءها يصل إلى الضفة الأخرى ليقترب بحذر من حشرته، وفي لحظة مبشرة بالفوز يكون أبو زيد الهلالي بين أصابعه. تتهلل ملامحه فرحا، وتتعالى أصواتنا؛ لنلتف حوله وهو يحاول أن يربط خيطا صغيرا بإحدى أقدام الحشرة المسكينة، تبذل جهدها في المقاومة للإفلات، بينما يتصايح بقية الأطفال في دهشة، مطالبين صيادنا بالتحقق من أن الخيط قد رُبط جيدا، ليبدأ السباق فيما بعد، بينه وبين صياد آخر في الفريق الثاني.

كان أزيز الأجنحة يحملني إلى الأسطورة، أكاد أسمع صيحات أبي زيد وهو يخترق صفوف الأعداء شاهرًا سيفه البتار، قصة أخرى.

(3)

تلمع النجوم في ليل الصيف، تبدو كأنها ترهف السمع معي إلى حكاية «أبي

زيد»، الفارس المقدام، دمث الأخلاق، سخي السجايا، ينضوي أبناء القبيلة تحت جناحه وكذلك العابرون؛ بحثا عن الحياة.

ذاع صيته وانتشر، تمتد يده للضعفاء والمحتاجين، وترددت حكايات صولاته وجولاته بين القبائل المجاورة، فكثر معجبوه وزاد مؤيدوه، إلا أن أحدا منهم لم يفطن للوجه الآخر له.

تقول الحكاية إن بطلنا المغوار لم يرض أن ينبت في الصحراء الممتدة من يشابهه في الخصال، فكان يقضي على أبناء أخته الذكور خشية من القول السائر ثلثي الولد لخاله.

(4)

ترتعش بعد مخاض مضن، إنه ذكر بهي هكذا قالت لها القابلة فرحة مستبشرة، تغلق فم القابلة وتستعطفها بقطعة حلي ثمينة، تطلب منها أن تنشر خبر ولادتها لأنثى، لم تعد تحتمل مرارة الفقد، ستحتفظ بهذا الولد وتربيه كأنثى بين بقية بناتها الصغيرات، هكذا هداها قلبها المفطور.

(5)

يكمل الفتى سنواته السبع وما زال يرفل في ثياب أخواته البنات، خطواته تحتشد قوة، عيناه الثاقبتان كنسر صغير تشعان فطنة، قفزاته ردود أفعاله المباغتة، جميعها تشي بقدوم فارس يفوق خاله ويطفئ توهجه.

بين فوضى الرمال وتلك الملابس الساترة لحقيقته كان البطل الصغير تغريه النبال وصناعة الأقواس، يحاول جاهدا صناعة قوس وبري نبل، بينما تنهمك أخواته الثلاث في خياطة ملابس زاهية للدمى المصنوعة من سعف النخيل وبعض خيوط الصوف.

(6)

يراقبه «أبو زيد» بين حشود التعليقات واندهاشات المارين، تكبر الحقيقة وتتصاعد الشكوك في صدره؛ ليقرر أن يصطحبهم في رحلة صيد كما اعتاد أن يفعل، هناك وبفطنته ودهائه يستطيع أن يميزه، فقد يكون ذلك البدر الذي رآه في منامه قبل مولده وهو يرتفع في السماء متوهجا باعثا نوره الوضاء إلى الأرض.

وقف متخشبا من الفكرة التي راودته، حاول أن يطردها وهو يتبع الفتى بنظراته الفاحصة، بينما يختفي راكضا بين ممرات المكان وتعرجات الطرق.

(7)

تقف عاجزة عن الرد، شعور غريب يطوقها سرعان ما يحيط برقبتها مثل حبل سميك، كيف تتركه بين يدي خاله، تحاول أن تخرج كلمات الرفض لكنها تختنق بلغتها، بالكاد استطاعت أن تحرك رأسها وهي تلقي نظرة على ابنها الذي يزداد جذلا بقرار الرحلة.. هل يمكننا الذهاب يا أمي؟ ابتسمت وبدت كريشة تتهادى وتطوف أو كقطعة من الرماد.

استدارت متماسكة وقبل أن تجيب كان «أبو زيد» يداعبهم ضاحكا:

«غدا في الصباح الباكر سأكون هنا لأخذكم، ستكون رحلة صيد مدهشة».

(8)

تتموج الرمال وتنتشر، بينما ضوء الشمس وهو يعلن حضوره فوق غابات الشجر يرسم نصف دوائر تدور في نفس المكان، يختلط الشعاع بوجوه الأطفال الجذلة المتنقلة بين الظلال، يبدو «أبو زيد» مفعما باللطف ومثقلا بزنازين الحقيقة المخفية، والفتى يدور حول شجيرات الغاف والنخيل المنتشر، يشد بيديه قطعة خشب يعيد تشكيلها، يلفها بخيط ليف، ويردد بصوت طفولي عذب تهويدة سمعها تنساب من فم أمه:

ويا «علي» ركاب الخيل والخيلة خيلة أبو زيد..

(9)

ينهض «أبو زيد» والكلمات تملأ فمه، لكنه ينجح في ابتلاعها رغم مرارتها، يتأمل انحدار الشمس مكللة بالاحمرار، لا يعلم كيف مر الوقت دون أن يعبأ بحيرته، صوت الصغيرات يعيده إلى نفسه، يطلب منهن الاستعداد للعودة كان الفتى نزاعا ليكون في المقدمة، يقفز بين الظلال كضوء النجم، يثبت لخاله أنه كذلك يصلون منزل أخته وقد بدأ الليل يسدل ستاره رويدا رويدا على القرية، والقناديل أضيئت وعلقت، يجدها أمام باب المنزل تنتظر والخوف يخترق عقلها كحد السيف تتبين وجه أخيها لكنها تفطن جيدا أن ثمة حقيقة على وشك أن تشي بها بعض الكلمات المبعثرة بينهما.

(10)

كان يقف أمامها محاولا سحب نفس عميق ليبدأ الحديث، بينما **الصغيرات** يتعلقن بأكمامها فرحات، تبدو كتمثال ينتظر فأسا يهوي به، تصل كلماته إلى سمعها مكتظة بالكثير من الشعور الذي تدركه تماما:

- أخبريني الحقيقة.

تجرعت مزيدا من الهواء وأصبحت مستعدة للإجابة:

- نعم إنه ابني، لا تعلم من أين أتت بهذا الكم من الشجاعة، إلا أنها لم تعرف كيف حدث ذلك، لكن تلك هي الحقيقة دون أدنى شك.

استدار عائدا دون أن ينبس ببنت شفة، انهارت تقبّل الصغار وتهمس لابنها «عليّ» في مشهد يعبق برائحة الحب وأعجوبة النجاة.

(11)

في عتمة الليل كان يتوسد ذراعه، يحاول البحث عن ضوء نجم، يمد يده لوجه أمه، إنه في السماء يلاحق بحب ملامحها الحنون، يكاد يتلمس ضحكات أخواته الثلاث، إلا أن يد خاله تهز جسده فجأة:

- علي.. علي، عليك النهوض للبحث عن طعام للرجال الذين معي في القافلة.
- الصحراء قاحلة تماما حتى من ضوء.
- كيف لشاب مثلك أن يقول ذلك؟

يشعر بغضب خاله، يتبينه بين كلماته رغم الظلمة الحالكة التي تلف المكان، وقبل أن يكمل يقف «عليّ» وهو يسوي ملابسه بهدوء خوفا من إيقاظ الرجال.

يهمس لخاله ويذهب.

(12)

أقف بجانب نخلة؛ أراقب الفريقين وهما يتشاكسان في عراك من يفوز بأطول مسافة يقطعها أبو زيد المعلق بخيط بين أصابعهم؛ محاولة اجترار الشعور الذي اعتراني وأنا أتصور «علي» ابن الثامنة عشر يجوب الصحراء؛ بحثا عن طعام لخاله ورجاله، لا شك أن أبا زيد كان يريد أن يوقع به، لم يكن له دافع سوى التخلص منه، أو إظهار عجزه أمام الرجال في رحلة طويلة يقطعون فيها صحراء ممتدة، تطفح بقصص الجنيات اللاتي يصطدن الرجال الهائمين كما تقول جدتي، ومن يظهر الخوف منهن فهذا يعني نهايته. أما من يحسن الحيلة ويظهر القوة فقد نال ما يريد.

(13)

قبيل الفجر يتهادى خيال «عليّ» بين الرمال، يتقدم بخطوات ثابتة رغم شدة الإنهاك حاملا الطعام، فيقف «أبو زيد» بقامته الفارعة متباهيا بين الرجال: هذا هو ابن أختي قد عاد بالطعام كما أمرته.

مضى «عليّ» إلى راحلته متيقنا أن الطريق إلى قلب خاله أشد وعورة من طريق جبلي، لكن أمه كانت قد علّمته أن الحياة تدب في طرقات الحب والرحمة.

(14)

تقول الأسطورة إن القافلة عانت الكثير من المصاعب، لكن «علي» كان في المقدمة كغيمة محملة بالمطر، كما تقول أيضا إن «علي» هو من أنقذ الطفلة من يد الجنية ذات الرؤوس السبعة، التي سدت مجرى فلج إحدى القرى، وكان القربان طفلة تُرسَل كل شهر مقابل أن يغاث الناس بالماء، فقطع رؤوسها الستة وأبقى رأسا واحدا حتى تموت، ثم قفز عاليا ليطبع بيديه المضمختين بدمها على جدار قصر شيخ القبيلة، ليأتي الصباح ويجد أهل القرية الماء يسيل رقراقا عذبا بين مزارعهم التي أصابها الجفاف، فيطلبون من أصحاب القافلة معرفة الشجاع الذي فعلها ليقول لهم «أبو زيد» إنه الفاعل، ويطلب من «عليّ» الاختباء بين الأمتعة، لكن «أبا زيد» لم يستطع أن يصل إلى الكف المطبوعة بالدماء على جدار القصر، ليكتشف الجميع أن بطلهم شاب في مقتبل العمر فاق الجميع خُلقا وخَلقا، فيزداد حنق «أبي زيد» وغضبه.

(15)

تودع القافلة القرية بعد أن أغدقهم شيخها بجزيل العطاء وبقي قلب «عليّ» معلقا بعينيها، لقد رآها هناك في تلك القرية تتبعه بنظراتها التي اخترقت قلبه

كسهم، نظر إليها مشدوها كأنها شيء غير مألوف في حياته كلها، وكأن الفصول الأربعة اجتمعت في عينيها وذاب الحزن والفرح في لونهما.

تبعها حينها واستحضر جرأة المحارب ليبدأ معها حديثا مقتضبا جعله يدرك أنهما سيلتقيان.

دس بين أصابع يديها خيطا أسودا شك به بعض الخرز الملون، واستدارت خجلة، بينما ظل متسمرا على طرف الطريق ليحتفظ بآخر ذكرى منها.

(16)

سارت القافلة و«عليّ» يحمل وجه روضة وابتسامة واعترافا لم يستطع النطق به، بينما حمل خاله رائحة الهزيمة، وشعورا لا يمكن سبر أغواره؛ شعورا لم يستطع إيقافه أو كبح جماحه وقد بدا ظاهرا في صمته.

(17)

في طريق العودة قرر «أبو زيد» أن يعرج على قرية «التل» ليقضي مآرب وشؤونًا له وللقبيلة. أقامت القافلة ثلاث ليال وفي الليلة الرابعة تفاجأ سكان قبيلة «التل» بهجوم من مجموعة مسلحة غايتها النهب والسلب، وبدأت المعركة، «أبو زيد» في مقدمة المدافعين و«عليّ» كالليث الهصور عن يمينه تارة ويساره تارة أخرى، يرد ضربة ويرسل أخرى، كانت المعركة تنبئ بانهزام اللصوص وتقهقرهم، وإذا بسهم طائش يشق المسافات، كان مطلقه يهدف به «أبا زيد»، في لحظة فاصلة تحول «عليّ» درعا يصد الألم عن خاله، فاستقر

السهم دون رحمة في كتفه؛ ليخترقها ممزقا ما حاول إيقافه من جسده فيقع مضرجا بدمائه.

(18)

كم كان الحب مصدر قوة وضعف!

«عليّ» كطائر مكسور الجناح يتلوى ألما فوق راحلته بعد أن رفض خاله تركه في قبيلة «التل» للعلاج، رغم محاولة الجميع ثنيه عن رأيه الذي سينهي حياة «عليّ» بلا شك، لكنها الفرصة المواتية للنصر، كيف يفلتها من يديه؟!

في الصحراء الشاسعة لن يكون هناك فرصة لـ«عليّ» سوى الموت، سيرتخي جسده، ويتخلص «أبو زيد» من ذلك الحمل الذي يسرق شعاعه، لقد أهداه القدر فرصة لم يكن يحلم بها.

(19)

«عليّ» يشم نسائم شوق أمه، يبحث عن وجهها المضيء بين النجوم، يمد يده باعثا تأوها لا يكاد يُسمع، تمنى في لحظة إغفاءة أن تكون بجانبه الآن لتدثره بروحها وتلملم جراحاته، كان يود لو يتكوم بصدرها كما كان يفعل؛ لينساب صوتها كسيل من الأمان والحب في تهويدة حفظها عن ظهر قلب:

«يا عليّ ركّاب الخيل..».

طيوف أخواته الثلاث تباغته ثم تتلاشى كفقاعات في الهواء.

«روضة» ينطق اسمها وهو يعلم أنه يُشارف على الموت، عيناه المشعتان بالحب قطعتا وعدا لها بالعودة، لكنهما الآن ينسدلان، يبذلان جهدا لينقلا آخر ملامحها المدهشة، لكن الصورة تهتز وكأنه قد أصابها التشويش، ثم لا شيء سوى مساحات من البياض، كأنه غيم نقي يغطي لون السماء وصوت أمه الحزين «يا عليّ ركاب الخيل، والخيلة خيلة أبو زيد..».

أهز جدتي وعينيّ غارقتين في الدمع والضوء: وروضة؟

تغير هيئتها ثم تقول:

كان «الملاّح» يلف القبائل؛ ليحمل الأخبار والرسائل، وما كاد أن لمحته «روضة» حتى هرولت جزعة ليخرج صوتها مرتجفا هامسا للملاح:

- خبرك يا ملاح؟

يرى كثافة الشعور واضطرابه في عينيها ويدرك ما ترمي إليه، يحاول تفاديها لكنها تردد بصوت وهن: خبرك يا ملاح؟

ليرد مترددا: «عليّ مات وسيفه سقايف[1]».

تركض «روضة» عبر الصحراء باحثة عن قبر «عليّ» وحين تراه ترمي بنفسها عليه ليخترق السيف جسدها المضني وتحلق روحها إلى الخلود، وبعدها بأشهر ينبت مكان القبر شجرتان وارفتان متعانقتان تنشران الظل والجمال.

(1) سقايف: شاهد يوضع على القبر، وفي العادة شاهدين من الحصى للرجال.

أما أمه وأخواته لم يصدقن كذبة أبي زيد بأن «علي» مات في المعركة مباشرة، كان «عليّ» قد كتب قصته على لوح في راحلته قبل أن تفيض روحه، فأصابهن حزن عميق وبكاء دائم، حتى تحولن حمامات بيضًا يرفرفن في الفضاء؛ ليقفن على شجرتين ملتفتين في وسط الصحراء الممتدة تحدها زرقة السماء.

(20)

نتناثر بين السواقي والحقول كأفكار عابرة، محاطين بالحكايات، ممتلئين بشغف العودة إلى حيث تنبعث الرؤى وتتراقص الأخيلة... كان وجهي قريبا جدا من الاتحاد بوجه «عليّ»، بينما أصواتهم تعيدني للعبور عبر قنوات الماء الملتفة بين النخلات السامقة وشجيرات يتراءى لي أنها تنحني لوقع أقدامنا الصغيرة، يجذبني طيفه حتى أكاد أذوب في الهواء، لكن يدا أخرى تعيدني للجري، بينما أشع كعملة ذهبية حين أتذكر أن «علي» هنا ينبت في صدري حيث الحقيقة كزنبق أبيض.

وتبقى أسطورة أبي زيد الهلالي بتفاصيلها المخبأة المتخمة بالأسرار، ترسم حبكة وتخلق أخيلة، كبرهان لتناقضات الوجود، تبدأ مع ميلاد كل طفل، كتهويدة[1] سحرية تأخذه إلى عالم الأساطير الذي يبعد مقدار ما يقترب من الحقيقة.

حن يا ماضي

د. دينا علي شرف الدين

«لا يمكن أن نثق في إنسان لم نرفي عينيه طفولة».

إبراهيم الكوني

جملة في أغنية للمطرب لؤي، تغنى بها تترا في مسلسل «قصه حب»، كلمات قريبة وبسيطة، ولكني كلما سمعتها رحلت معها وبها إلى قريتي الصغيرة في بيت جدي «السيد أفندي» كما كان يُلقب. رجل في الستينيات من عمره، طويل القامة، وقور المحيّا، وزادته شعيراته البيضاء في رأسه ولحيته جمالا وهيبة. أذكره مرتديا عباءته السوداء ذات الصديري الرمادي، وطربوشه الأحمر بشعيراته الدقيقة التي كان يهندمها ويلاعبها برقة واهتمام.

تعودت رؤياه مهابا من الجميع، حتى إذا أتيناه سقطت كل هيبته مع أول حضن، وأخرج محفظته الكبيرة وأحيانا بطريقته المعهودة، والمحبوبة عندنا جميعا، نجلس معه قليلا، ونهرول لبيت خالتي «طاطا»، كنت أظنها أختا لأمي، ولكني سمعتها تنادي على جدي وتقول له: عمي... وبسؤالي لأمي عن درجة قرابتها، قالت لي إنهم أولاد خالة وعمومة، وإنها كشقيقتها الصغرى.

البيت واسع ورحب دوما بأهله، بيتان متجاوران بنافذة مشتركة: بيت السيد أفندي، وبيت أخيه الذي سكنته من بعده.

عند خالتي «طاطا» بعد السلامات والمرحبات، نبدأ اللعب أنا وأخواتي وأبناء خالتي، كنا متقاربين في الأعمار، كأنهما كما اتفقتا في سنة الزواج، اتفقتا أيضا في الحمل والإنجاب.

نقسم أنفسنا فريقين يمينا ويسارا، وشباك غرفة الضيوف هو المرمى الذي نستهدفه، وتبدأ المباراة، وحين يحرز أحد الفريقين هدفه، يجري ويطير ويدبدب في الأرض كمحمد صلاح الآن، وهنا يبدأ الخلاف (هذا الهدف لاغي)، (أوف سايد)، (حرام أقسم بالله). وتتعالى الأصوات والثورات حتى تصل لمسامع جدي، فينهي الخلاف بأن نتوقف عن اللعب، فإما الحراك، وإما الفراق، ونختار الفراق، ونقسم الملعب، أقصد النافذة نصفين بالتساوي، حتى درجات السلم الثلاث لم تسلم من نزاعنا عليها.

نتبعثر كحبات قمح في فصل الربيع، كل منا في مكان، حتى إذا اقترب موعد الرحيل، تساميا على خلافاتنا، وتصالحت قلوبنا، وعدنا للعب ثانية كأن شيئا لم يكن.

إلى الآن كلما خلدت إلى النوم، أبحث في ذاكرتي عن شيء يسعدني، أتذكر تلك الأيام والحب الطفولي الذي جمعنا، حبي لجدي وخالتي التي آلمني موتها صغيرة، تاركة خمسة من الأطفال أحببتهم كإخوتي، فقد كنا نمضي معظم الوقت معًا، لا نفترق إلا عند النوم.

كانت علاقة أمي بخالتي مميزة ومثيرة للغيرة لكل من حولهما، أتذكر وجه أمي وهي تعد لنا الفطور، وتذهب مسرعة إليها؛ لتراعي شؤونها في مرضها الذي ألم بها وأضعفها، فأصبحت هزيلة لا تقوى على شيء، حتى أبسط الأشياء صعبت عليها.

وجاء يوم زفاف ابنة أخيها الأكبر، ولم تكن ترغب في الذهاب، لكنه فاجأها بفستان مطرز جميل، مشددا عليها أن تحضر، فقد كانت كابتنه الكبرى قبل أن تكون أخته الصغرى.

ساعدتها في لبس الفستان، وتهيأت تماما للمناسبة السعيدة، وقبل أن تخرج من غرفتها نظرت لنفسها في المرآة، وقالت لي: شوفتي خالتك خست إزاي؟

قلت لها بلطف: أنت الآن أفضل، أصبحتِ أرفع ولكنك قمر دوما.

ردّت علي بابتسامة حزينة: ادعي لخالتك يا دينا.

أدعو لك دوما، وأفتقدك كثيرا، وأفتقد بيتك وطعامك الكسكسي المسكر، لم آكله منذ رحلت، فيقيني أنني سآكله معك ثانية، وسيكون أشهى وألذ، ويحلو أكثر بضحكتك وغمازتك، وعينيك الصغيرتين اللتين تغمضان فلا يُرى منهما إلا الجفنان.

دمت ضاحكة يا فاطمة القلب.

الجوهرة

ميّا الصواعية

في صغري يبدأ مسائي على «السيم» وشجرة الغافة وحكايات جدتي والنجوم اللامعة، ونسيم يحمل بين طياته رائحة بعض الياسمينات وشيئًا من عبق ملكة الليل. تبدأ جدتي حكاياتها عن الثعبان «الداب» بلهجتنا الدارجة، الذي يذهب كل عام يبحث عن الأكل، وفي جوفه جوهرة كبيرة متلألئة يضطر أن يخرجها ليأكل... فكان بعض الذين يعرفون هذه الخاصية الفريدة العجيبة يتبعونه ويختبئون حتى يلفظ الجوهرة، فيأتون بوعاء صلب يغطون به هذه الجوهرة، فيعود الثعبان بعد الرعي كما تقول جدتي ليجد أن الجوهرة قد حجبت بالوعاء، ويبدأ، في محاولات بائسة، بضرب الوعاء حتى تخور قواه، ويسقط هالكا مضرجا بالدماء... فتؤخذ الجوهرة، وتباع بأغلى الأثمان... قالت جدتي حكايتها، وغرقت في النوم كالعادة على السيم العتيق...

تركتني للتساؤلات والصور والأخيلة... تحكي لأنام، ولا تعلم أنها تشعل فكري بأساطيرها الممتعة... مرت الأيام على الحكاية، وذات ليلة ظلماء كنت أتابع النجوم الساطعة أكوّن بها أشكالا ورسوما. داعبني النسيم لألتفت جانب الشجرة وإذا بي أرى نورا متوهجا... قلت في نفسي

إنه الثعبان، والقدر يبتسم لي... سأسعد بالجوهرة، ونصبح من الأثرياء، همست لأختي وأقنعتها، وذهبنا لإيقاظ ابن عمتي، وبدأنا عملية مخاتلة جوهرة الثعبان...

وفي خطوات حذرة جدا، ولكم أن تتخيلوا مستوى الخوف، وصوت قلوبنا الصغيرة وهي تقترب شيئا فشيئا من الغنيمة الثمينة، وبسرعة متناهية وضع ابن عمتي «عبدالله» الوعاء فوق الجوهرة، واختبأنا ننتظر الثعبان المسكين، وعلامات النشوة والبهجة واللهفة تشع من أعيننا المترقبة. يمر الوقت ولا يأتي الثعبان وما زلنا ننتظره، وقبل الفجر يأتي جدي إلى موقع الجوهرة فنصرخ به: لا... هناك ثعبان، فيرفع عصاه باحثا عنه، وفي نفس اللحظة يسألنا عن «البجلي» إن كنا قد رأيناه، والذي نسيه مكان جوهرتنا الثمينة؛ ليبحث عن الثعبان المزعوم، ويذهب به إلى المسجد، ويؤذن لصلاة الفجر... في هذه اللحظة التقت أعيننا المتعبة ضاحكين من خيبتنا..

جبل العيد

سعيدة الراشدية

ليس المكان مساحة فقط، إنه حالة نفسية
أيضا. ولا الشجر شجر، إنه أضلاع الطفولة.
محمود درويش

جميلة هي ذكريات الطفولة وأحاديثها، تأخذنا بعيدا إلى الدفء والحنان، حيث نعانق أرواح من نحب، أرواح من رحلوا عنا، لعلنا نجد بلسما يداوي جروح فراقهم.

عشت طفولتي في قريتي الجميلة التي تحفها الجبال من كل اتجاه كأنها عين تحيط بها الأجفان، في قريتي طقوس للعيد ما زال يتمتع بها الأطفال، ولكن حرمت منها بعد انتقالي للمدينة.

من ذكريات الطفولة جبل العيد. في العيد يؤدي أهل قريتي صلاة العيد فوق الجبل، وهو عبارة عن هضبة متوسطة الارتفاع، لكنه ونحن صغار نراه شاهق الارتفاع.

كانت أمي -رحمة الله عليها- تجاهد أن أكون أجمل فتاة في العيد لأنافس أطفال قريتي، لكن شقاوتي تأبى ذلك. كانت من عادتها أن تبدأ

مشوار الاستعداد بعد صلاة العصر قبل العيد بيوم، تقوم بجدل شعري الطويل الكثيف، فتبدأ المشوار بجدله جدائل صغيرة جدًا فتكون كثيرة جدا... لم أعلم ما الهدف من ذلك وما الجمال فيه؟! لكنه كان ديدنها في كل عيد -رحمة الله عليها- وبمجرد أن يسدل الليل ستاره أقوم بممارسة هوايتي وهي فك جميع الضفائر، فالظلام ستار، لتتفاجأ أمي بعد طلوع الفجر بأن جهدها ذهب هباء منثورا، فتبدأ بتوبيخي الذي يصاحبه بكائي، فستسبقني الفتيات والفتيان إلى الجبل، لأن أمي لن تتنازل عن تضفيره من جديد، لكن الحجم يزيد والكمية تقل، وهذا من رحمة الله بي ففكها متعب.

أرتدي ملابس العيد الجميلة، وأسابق الريح للصعود إلى الجبل، فالعيد لا يكون إلا باعتلاء جبل العيد، ننتظر المصلين ونمارس هواية الركض حول المصلى، وبعد فراغهم من الصلاة والخطبة تبدأ أولى مراسم العيد بدق «الطبول» و«الرزحة»، فينسابون من فوق الجبل مع نغمات الطبل وكلمات الرزحة، متجهين إلى شجرة «الصوبارة» لإكمال الفعاليات.

لصغر سني كنت أعتقد أن العيد هو الجبل، فقرر والدي -رحمة الله عليه- الانتقال بنا إلى مسقط، وشدني فيها كثرة الجبال كقريتي، فصرخت فرحة... ما أكثر العيد معهم.

بيتنا القديم كأنك تراه

وضحى المسرورية

(1)

البيوت في ثمانينيات القرن الماضي كانت تُبنى على طراز متشابه بعض الشيء، إذ يوجد بها دروازة، وهي بوابة مسقوفة بالأسمنت المسلح أو أعمدة الخشب، بها باب خشبي ومدخلان أحدهما يُفضي إلى السبلة والآخر يُفضي إلى داخل البيت، وحجم الدروازة يدل على ثراء صاحبها وتقاطر الضيفان عليه.

وأبواب البيوت كان أحد مصراعيها مفتوحا على الدوام، فمن ثقافة الزمن الماضي أن البيت المغلقة أبوابه لا تدخله الملائكة.

وأمّا باب بيتنا وإنْ كان مفتوح المصراع إلاّ أنّه كان حاسرا من الدروازة، وبالتالي لا يقرعه أحد سوى زكريا المحاسب المصري؛ الذي يراجع الحسابات مع أبي مرة كل شهر، وكنا نجهز له الطاولة والكراسي في السبلة، ونعدّ له طعام العشاء المكوّن من كفتة اللحم المفروم وسلطة الخيار مع روب الخمائل وبعض النواشف.

والعمال الهنود يقرعون بابنا؛ ما بين مسافر يتسلّم جوازه من أبي، وبين آيب من السفر يُسّلم جوازه ومعه هدية ملفوفة بورق الجرائد تعبق برائحة مومباي،

فيها مجسمات لفيلة مصنوعة من خشب الصندل، وقطعة حلوى، وإزار أبيض مخطط بالطول والعرض.

وأحيانا يطرق بابنا بعض الصبية، يسألون أخي معدات وآلة نفخ عجلات السياكل ومادة مزيّتة تستخدم لتسليك جنزير الدواسة، لا أكاد أتذكر هل كان يتقاضى منهم الثمن، أم يتحذلق عليهم بمقدرته على التصليح.

(2)

السبلة تقع على يسار الباب الرئيسي في الركن الشمالي الشرقي، وهي بناء مستطيل أبعاده 4م × 5م، تكاد تكون مهجورة، ذات جدران عارية إلا من برواز صغير على شكل مربع، داخله ساعة مستديرة ومئذنة عن يمين الساعة وأخرى عن يسارها، وبين المئذنتين تتوسط آية الكرسي مكتوبة بخط النسخ العربي، والجدار مطليٌّ بلون برتقالي زيتي باهت حتى المنتصف، والنصف الآخر طلي بالأبيض المائي، ولها باب ونافذتان خشبيتان صغيرتان.. وتصطف الوسائد على أضلاعها الثلاثة، وكنا نستبق أنا وإخوتي في منتصف النهار، ونلعب بها نراكمها فوق بعضها بعضًا ونمتطيها كأنها ظهور الخيل، والبطل منّا من يطاول في بناء خيله بأكبر عدد من الوسائد، وأحيانا نصنع منها حافلة طويلة ونتسابق للركوب في المقعد الأمامي.

وأمام نافذة السبلة الغربية توجد شجرة «صوبار»، هي من فصيلة أشجار التمر الهندي، تتقاطع معها في أشكال الثمار، لكنها تختلف في لونها إذ تكون حمراء بعد النضج ولحمها أبيض بملمس إسفنجي به نوى أسود.

(3)

لبيتنا القديم باحة مكشوفة أكْثَر فيها أبي من المغارس، تتناثر في أغصانها الطيور التي تملأ البيت بشقشقتها وتغريدها الذي يختلط بصياح الديكة ونقنقة الدجاج، وينضمُّ إليها أصوات البهائم لتشكل جوقة موسيقية.

تصطف غرفة المعيشة وغرفة أخرى مجاورة لها في الجهة الشمالية من الباحة، وفي منتصف الفناء صنبور ماء بماسورة معدنية مثبّته على الأرض، يقطُر في طست حديدي تشرب منه الطيور، تليه الغراس: زهرة دوّار الشمس التي تتبع أشعة الشمس من الشرق إلى الغرب، ونخلة جدمي ونخلة نغال يتدلّى منهما شماريخ الرطب، وبعدها بمسافة عشرة أقدام تنتصب سدرة النبق البري الظليلة، وقد ربطنا في أحد أغصانها أرجوحة من حبل متين جدا نسميه حبل الطلوع حتى يحتمل رعونتنا، ويتساقط منها الشوك والنبق، ولا أمر من تحتها وأنا حافية القدمين إلا وتعلق شوكة في قدمي، وتبدأ أمي رحلة التنقيب في جلدي بالإبرة بحثا عن الشوكة، ودائما تردد «الشوكة حالفة ما تطلع فليل» – في زمان كانت كل الأشياء تتكلّم وتعبّر عن نفسها – ولا يهدأ لها بال إلا بعد أن تظفر بها وتطحنها بأسنانها.

وتقابل السدرة البرية سدرة النبق الهندي، كنا نعلّق في أحد أغصانها مطارة زرقاء سماوية ومن الأعلى لها لون أبيض بها ماء مثلّج بنكهة روح الهيل، وبالقرب من السدرة شجرة الكافور.

الآبار في البيوت كانت من مظاهر التمدّن والاستقرار، لأن النساء في السنوات الماضية يتكبّدن مشقة إحضار الماء من الأفلاج إلى البيت في آنية

معدنية تُسمّى «الهاندو»، ولا تسلْ عن معاناة أمي في قطع المسافة من البيت إلى الفلج، وهي الحامل والمرضع، حتى النفاس لا يعفيها من الاستسقاء، إلى أن كشف الله تلك الغُمة وغدا في بيتنا بئر وبها مضخة كهربائية «دينمو» تقوم بضخ الماء إلى خزان حديدي معلّق فوق سطح الحمّام، الذي تتسلّق جدرانه نباتات ست الحسن المعترشة التي لا تقوى سيقانها على الوقوف بشكل رأسي، لها أوراق دائمة الخضرة وأزهار بنفسجية تتفتح عند شروق الشمس لتعود وتقفل أجفانها عند المغيب. وهي في انتظار الشاطر حسن لينبهها من منامها في صباح الغدِ.

وفي يوم كنت واقفة على الجدار أُناظر ست الحسن وقد مالت الشمس إلى المغيب، وأحد العمّال كان يُصلح عطبا في أحد المواسير التي تصب في الخزّان؛ فباغتني وجوده وهو يهمُّ بالنزول واصطكت ركبتاي وبان عليّ الخوف، فاخْتل توازني وهويتُ من على الجدار، ولولا أن تداركتني رحمة الله لسقطتُ في حفرة كانت قد أعدتها أمي لشوي السمك تلتهب تحتها الجمرات، فلفحتني النار بلهبها وأصبتُ بخدوش في ظهري.

(4)

المخزن القديم كان مركز الثقل في البيت فهو غرفة معيشتنا وصحونا ونومنا، يتوسط البيت من الجهة الشمالية، له باب خشبي بدفتين ومطليّ باللون الوردي، ونوافذه كانت مصنوعة من الخشب وعليها قضبان من الحديد،

وكانت لا ترتفع عن الأرض إلا بمقدار ذراع ونصف بحيث تدركها كفّكَ وأنت جالس.

كان المخزن مسقوفا بأعمدة خشبية وحصير من النايلون إذا وقفت وطاولت ذراعك تستطيع ملامسته وعد أعمدته بأصابعك، فضلا عن تدوير مروحة السقف بيديك.

كان التلفزيون قد حلّ ضيفا على الكثير من البيوت فأفردنا له صدر البيت، وانحسرنا نحن على العتبة، وتواصينا بالخرس العائلي، فلا تكاد تسمع في البيوت إلا صوت التلفاز يلعلع ونحن من حوله نتهامس، ويتربّع داخل صندوق خشبي ينثني عندما يفتح ويغلق، وهو ملون وصناعته يابانية. في جهة اليسار من الجهاز يوجد عدة أزرار خاصة بالتشغيل وضبط الصورة والصوت ويوجد به آريل لاستقبال الإرسال.

«المندوس».. لا يكاد يخلو بيت من «المندوس» أو السحارة الحديدية. و«المندوس» يُصنع من خشب الساج المستورد من الهند، ويُزخرف بمسامير ذهبية يُشكّل منها المجامر والأزهار والدوائر المتداخلة.

اعتادت أمي أن تراكم فيه الأعشاب العطرية والكافور وبعض حليّها الفضية، مثل الحجول وحلقة حديدية مائلة إلى الاخضرار كانت تلبسها في زندها طاردة للجن، «والعكفة» وهي حلي تصنع من الفضة تضعها النساء على رؤوسهن بعد أن يضمّخ الشعر بعشبة الآس، ويتدلّى من المفرق شمروخ من الذهب، وبعض الأقمشة، وأشياء كثيرة متراكمة في «المندوس»، غارت في غياهب الذاكرة ولم يبق لها أثر.

أما الجدار فكان معرضا للصور الفوتوغرافية ذات البراويز بأحجام متعددة:

- صورة لأبي بالأبيض والأسود في دولة الكويت في منتصف الستينيات. كان في مطلع شبابه خفيف العارضين، بعينين نجلاوين تكسوهما غلالة من الحزن، وابتسامة هادئة، يرتدي الزي الخليجي: شماغ مثبت بالعقال وتحته طاقية شبكية «القحفية» ودشداشة ملونة بها ياقة وأزرار وجيب جانبي.
- برواز كبير به صورتان: صورة لأعمامي متحلقين حول صيد لهم من طيور اللقالق، وصورة لسيارة عمي؛ جيتي أبيض موديل السبعينيات.
- صورة لي وأنا في الثالثة من عمري، أجري وأبتسم للكاميرا، وشعري محلول على كتفي، أرتدي دشداشة عُمانية تصل إلى منتصف الركبة، وتحتها بنطال من الصوف، مخطط بالعرض يغطي قدميّ.
- صورة لأخي وهو في السادسة من عمره في أول عهده بالمدرسة، كانت في الأصل صورة شمسية تم تكبيرها وتأطيرها، وكانت أمي تحب هذه الصورة، وتقول إن أخي حسن الوجه بشهادة إحدى النساء التي كانت تحسبه بنتا عندما رأت صورته (ربما لدى المرأة طول نظر ولم تتضح لها ملامحه ولكن من يقنع أمي بذلك) وكانت تناديه بالدكتور اس وهي تعلّق به الأمل ليصبح طبيبا، لكنه عاكس آمالها واختار مهنة التعليم التي أهداها زهرة شبابه.
- رزنامة دفتر للتاريخ اليومي الهجري والميلادي مثبت على لوح كرتوني بلون أحمر.

- صورة بإطار مذهب لمنظر من الريف الأوروبي بحجم كبير نسبيا.
- قطعه كبيرة من قماش المخمل فيها صورة للكعبة والطائفين حولها.
- ملصق سلام مؤطر للكعبة المشرفة، اعتاد الناس في زماننا أن يحمّلوا الذاهبين إلى الحرم سلامهم، وعندما يعود زائرو الحرم يأتون بملصق يعلق على الحوائط شهادة إثبات أنهم بلّغوا السلام لقبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولا تسلْ عن الأوتاد المعلقة في الجدار والمسامير الحديدية التي نستخدمها كمشاجب لتعليق ملابسنا.

ويوجد مكيف «شارب» معلق في الجدار نصفه إلى الداخل والنصف الآخر في الخارج، وهو الجهاز المدلل نقوم بتشغيله من ساعتين إلى ثلاث ساعات، ويكاد يكون تشغيله في الليل من المستحيلات الثلاثة؛ إذ ننام في حوش الدار تحت مروحة «الاستاند» التي تنعشنا بنسيم بارد وتدور من اليمين إلى اليسار.

وتلتصق بالمخزن غرفة صغيرة نسميها العريش رغم أنها مبنية من الأسمنت وليست من سعف النخيل، لها فتحة كبيرة بلا باب ولا نوافذ. نكدّس فيها ما لم يسعه مخزننا من الدواليب والفرش والطاولات وألعابنا مثل «الكيرم»، وحقائبنا وأدواتنا المدرسية.

(5)

حظيرة الحيوانات مبنية من الأسمنت على شكل مستطيل، لها باب بضلفتي حديد، مصبوغ بالأخضر والبرتقالي، وتتوسطه أشكال قلوب وبعض المشغولات بأشكال هندسية تتوسط باحة البيت، وأحد جوانبها مسقوف بالخشب لتستظل تحته البهائم من لفح القيظ، وتحتمي من صقيع البرد في الشتاء، باستثناء صغارها اللواتي تعتني بهن أمي، وتدثرهن بأشولة الأرز، وتُدخلهن في المطبخ الداخلي حتى لا يفتك بهن البرد. وكنا نقتسم الشياه، كل واحد منا له شاة باسمه، فهناك شاة «لوزة» نعجة سوداء لها قرنان معقوفان وكانت عجوزا لا تقوى على السير، لا تجدها إلا رابضة تحت ظل الجدار، وإذا أخرجناها للرعي تأتي في آخر القطيع، لكنها كانت مباركة في شبابها وتلد التوائم.

أحيانا كنا نجد متعتنا في التغلّب على ثقل الأيام وطولها بالتندّر والسخرية على بعضنا بعضًا، وأحيانا على العمالة الهندية، فقد كان أبي وأعمامي من أوائل المقاولين في المنطقة، يستقدمون الهنود بكثرة لأعمال البناء، فتتيح لأنفسنا امتياز تحويل أسمائهم إلى ألقاب بحسب ما تقتضيه المواقف معهم، أو ما تفرضه أشكالهم.. أذكر منهم عجوزا كان جلد وجهه قد تغضّن، وذوّبت السنون شحمه، فلم يبق منه إلا جلد على عظم، لكن شعر رأسه غلب الشيب واحتفظ بسواده اللامع المائل إلى الزرقة المسكّن إلى فروة رأسه بأرطال من زيت النارجيل، ومفروق إلى الجانب، وكان يرتدي قميصا ورديا، وإزارا أزرق به أزهار برتقالية اللون يلفه على وسطه بطريقة غاندي كنّا نلقبه «هندي

التغلْوي»، إشارة إلى وجهه المتجعد كثمرة المانجو الفاسدة، وعندما يمرُّ من خلف بيت الجيران نتصايح وننادي بعضنا مرددين لقبه «ياااكم هندي التغلوي» ونضحك بأصوات عالية، وينظر إلينا المسكين ويتبسم ومن أين له أن يعلم أننا نسخر منه.

(6)

المطبخ يقع في بقعة قصية من الجهة الجنوبية الغربية، وملاصق له مطبخ صغير نسميه المطبخ الداخلي كان مغطّى بطبقة من الأسمنت بدون طلاء بالأصباغ، لا يوجد به نوافذ، فقط عدد من الكوّات، واحدة في المطبخ الخارجي مطلّة ناحية الغرب، وثمان أخريات في المطبخ الداخلي كفيلة بتهوية المطبخ.

وأرضية المطبخ كانت أسمنتية، إذ لم تكن الأرضيات المبلّطة بالكاشي منتشرة في البيوت القديمة. في جهة اليسار رف خشبي صغير تصطف عليه علب بلاستيكية وأخرى معدنية نحفظ فيها البهارات، وتليه الحنفية وخزانة خشبية بها أدراج مركونة على الحائط، ويقابلها موقد للغاز استبدلناه فيما بعد بالموقد المدمج بفرن كبير به آلة حديدية لشوي الدجاج.

أما المطبخ الداخلي فمساحته أصغر قليلا من الخارجي، يوجد فيه خزانة كبيرة يصل عرضها إلى ثلاثة أمتار وطولها متر وارتفاعها متر ونصف، نخزّن فيها طعامنا وأوانينا.

وعلى الحائط خطّاف نعلّق فيها سمك القرش المجفف مطارق العوال، ونضع زكائب التمور والأشولة على الأرضية.

أمي سيدة المطبخ تؤمن أن أقصر الطرق إلى قلوبنا مِعدَنا؛ فكانت تحرص على أن تعدّ لنا أطايب الطعام ممزوجة بحنانها، وتعبق بنكهة أمومتها، في وقت لم نأكل من المطاعم إلا من وجبة عشاء يأتي بها أبي مرة في الشهر من المطعم المليباري، والمكون من كيما اللحم المفروم والبازلاء والفلفل الحار مع خبز براتا ومخلل، وأحيانا من المطعم المصري وجبة فلافل مع الطحينية والسلطة والخبز اللبناني.

دواؤك من مطبخك قرأت مرة كتابا بهذا العنوان، وكانت الكاتبة – وهي طبيبة – تتحدّث فيه عن ضرورة الاستعاضة عن الأدوية والعقاقير والمستحضرات الطبية بأشياء موجودة في كل مطبخ. في زماننا لم نكن نطرق أبواب المستشفيات إلا في الشدائد، أما الأمراض السارية والجروح العابرة فكانت أمي هي الطبيب المداوي بجدارة، فالجروح تداويها بالآيدين البتادين، وأحيانا تصب عليها عطرا من قارورة كبيرة نسميه «شريعة الغبّي»، وضربات الرأس بالكركم، والمغص بعشبة نسميها العطرة، والرشح والسعال بالعسل الجبلي بعد أن يخفف بالماء، والذبحة الصدرية ببيضة طازجة نيئة تُكسر في الفنجان وترش بذرة ملح ونتجرعها. وإن كانت الأنف هي المصابة تخلط لنا البرسيم مع الماء وتسكبه إلى الداخل بصدفة نسميها مسعط، لم يعجزها شيء أطال الله في عمرها سوى ألم في أذني كان يعاودني من حين إلى آخر، فتُدخل أمي في قناة أذني نتفة من قماش لونها أسود ويأخذني أبي في منتصف الليل إلى المستشفى بعد أن تعلن أمي عجزها التام عن السيطرة على الألم.

سطح البيت الجديد

سالمة المرهوبية

«سر العبقرية هو أن تحمل روح الطفولة إلى الشيخوخة، ما يعني عدم فقدان الحماس أبدا»

فيكتور هوجو

جدار سطح البيت الجديد لن يراه أهلي إلا نادرًا؛ لأنهم يستثقلون صعوده ونكون نحن الصغار وسيلتهم لجلب كل ما هو مطلوب من هناك – إن كان يُوضع عليه شيء- لأن السطح لم يكن مؤهلًا – من وجهة نظر الوالدين – إلا لغرضين: إما أن ننام فوقه في ليالي الصيف الحارة أو يجفف فوقه الليمون أو البسر لمدة محددة؛ لكنه كان بالنسبة لنا نحن الصغار مسرح حياتنا الرئيسي في حالة وجودنا في البيت. لقد احتضن ذلك السطح أماكن لعبنا وفراشنا الليلي وحكايات المساء وألعابه، محاولات القفز من أعلاه تقليدا لحركات المظليين، وتراجعنا عن ذلك خوفًا بعدما أن نلاحظ ارتفاعه بعدة أمتار عن سطح الأرض. كما احتضن تجمعاتنا وهروبنا من أهالينا لنتناول في مخبئنا فيه كل ما تطيب له أنفسنا من مثلجات ومملحات وسكاكر خاصة نبتاعها قبل وبعد أذان المغرب، ونلتهمها في ذلك الليل

الطويل الشاق بالنسبة لطفل صام يوما طويلا صعبا عن كل ما يُحب؛ لأن الوالدين يمنعاننا من تناول تلك الأطعمة التي تصدنا عن طعام المنزل الذي يكون بالنسبة لنا بلا طعم لأنه صحي ومحضّر بمحبة، لكننا لا نحبه.

كان جدار السطح خير شاهد على مواهبنا وإبداعاتنا الفنية في مزج الألوان وخلطها وتجربتها على بياضه الناصع: كم علبة من معجون الطماطم (صلصة الطماطم) أو المادة الحافظة التي توجد في المعلبات، تحولت إلى لطخات على بياضه! كم نوع من السكاكر بعدما امتزجت في كؤوس الماء، كان خليطها يرسم لوحة من الألوان التي شوهت وجه ذلك الحائط.

كم عدد بيوت الحمام التي وضعناها عليه! وكم مصيدة للعصافير أعددنا هناك!

كم أنبوب تحول لمرقاب لمتابعة ورصد النجوم والكواكب وكأننا علماء فلك، يرصدون أحلامهم بالسفر إلى الفضاء والإمساك بالنجوم والكواكب والمجرات!

كم حبل غسيل نشرناه على ذلك السطح، وكم محاولة انتحار فاشلة تمت تجربتها بذلك الحبل محاكاة لأبطال الأفلام والرسوم التي كنا نتابعها ونقلدها بهوس!

كم غطاء لعلبة صفيح مع مجموعة من الخيوط المطاطية كان نموذجًا مصغرا لألة عزف ليس لها علاقة أو ارتباط بالعود! إلا بعض الألحان

الناشزة التي كان يصدرها طنين الأوتار المطاطية، وضحكات طفولية يتقافز الفرح منها بمثل ذلك النجاح الباهر.

كم سهرة قضيناها على صوت المذياع (الراديو) نستمع لمختلف القنوات الإذاعية! لندندن معه الأغنيات ونتابع نشرات الأخبار ونتعلم دروس اللغة الإنجليزية، ونبوح لذلك السطح بالحكايات والقصص والأسرار والآهات والدموع. سمعت حيطان ذلك السطح كل ذلك، فرددت صداه بين جنباتها لكنها كتمت كل تلك الأسرار، ولم تفضحها برغم أنه كما يقال في الأمثال: «للحيطان آذان».

وبعدما مضى من العمر ما مضى يلح من ذلك العمق والبعد سؤال واحد في زمن التذكر: ماذا تبقى على ذلك السطح وماذا تحمل حوائطه من ذكريات وأخبار وأسرار بعد هذا العمر على مرور قطار الطفولة عبره؟

وبنظرة تفقدية تجده يحمل الكثير، فهناك لاقط الإرسال الصناعي القديم، وطبق القمر الصناعي، وماكينة التكييف المركزي، وأسلاك شبكة الإنترنت والكهرباء، وأخشاب مهملة وأكوام من التراب، يقابلها على أحد الحوائط لطخات غير واضحة المعالم، تخبر عن زمن فات وانقضى تغيرت وجوه أصحابه كما تغيرت قلوبهم. وهنالك تقبع بعض الأسرار والذكريات مختبئة بينها، أحلام تعلقت بالنجوم ولما تتحقق بعد.

حكايات البحر

سعاد علي العريمية

«أعتقد أن الطفولة هي مرحلة وسطى بين الملائكة والبشر».
ياسر أحمد

على شاطئ رملي صغير شكله موج البحر في الجهة الجنوبية من الخور، تستلقي قريتي الصغيرة وعلى رأسها جرف صخري، يرتكز الجمال به ليشكل لوحات رائعة من المسلات والأقواس والمصاطب البحرية، ولا يفصلها عن مدينتي صور سوى هذا الخور «البحر» الذي يفيض بجمال زرقته على المكان، وينحسر حينا ليبرز كنوزا من الجمال «طيورا وسرطانات بحرية»، وقاعًا طينيًا يمكنك أن تتجاوزه في ثلث ساعة مشيا على الأقدام؛ لتصل إلى صور المدينة. ومع هذا التقارب في المسافات، إلا أن الفوارق بين سكان المكانين واضحة، فسكان قريتي تغلب عليهم ملامح البداوة في سيماهم وعادتهم وتقاليدهم ولهجتهم، قد يكون ذلك لكوننا من قبيلة واحدة فقط، فضّل سكانها أن لا يتمازجوا مع غيرهم.

في هذا المكان عشت الكثير من الحكايات الرائعة، وفي كل زاوية من زواياه أقمنا حكاية، فمع صخور جرفه الصخري عشنا حكاية البحث عن اللحم المتكون في المحار الملتصق بمسلاته وصخوره، إذ كنا نتجه مع الكثير من النساء والأطفال؛ لجمع أكبر قدر منه.

يدهشني حب بعض النساء لأكله نيئا، وقزززني في ذات الوقت، فقد كان البعض منهن يأكلنه مباشرة لحظة استخراجه بسكين حادة، أما البعض الآخر فيجمعنه لطبخه، وهذا يتم في فترات الجزر التي تكشف عن خيرات البحر.

وفي يوم من الأيام كنت مع صديقتي فاطمة وأخواتها نبحث عن سرطانات البحر، فوجدت سرطانا بحريا كبيرا تحت صخرة، وطلبنا من أحد الصبية أن يقتنصه لنا بمسلة حديدية، فالتقطه وذهبنا فرحين، وبحثنا عن حطب نشويه به، ونتلذذ بأكل لحمه الأبيض السمين، فرحت بهذا الإنجاز، أما في فترات المد فنستمتع بالاستحمام أفواجا، ونطيل فترة المكوث به لعدة ساعات.

وفي فترات الشتاء البارد يطل علينا الجبل الذي يحتضن شاطئ قريتي بكهوفه وتجاويفه؛ لنتخذها بيوتا نستمتع باللعب فيها، ونقسمها إلى غرف ومطبخ، بحسب حجمها، فالتجويف الأكبر اتخذناه غرفة للمعيشة، والتجويف الأصغر اتخذناه مطبخا، وجمعنا بقايا فرش وعلب فارغة ومحارا لنزين به هذا البيت الجميل الذي تعانقه أغصان شجرة سمر كبيرة، ولكم استمتعنا برمله الأبيض الذي يربض أسفل الجبل! ولكم

غامرنا وشاكسنا مع جدة صديقتي مريم وجدها! فقد كنا نملأ علبنا من برميل الماء الذي خصصته جدتها لسقي حيواناتها التي كانت تمثل لها الشيء الكثير، فتلاحقنا وزوجها بصرخات تزجرنا بها، ولكن لا فائدة من ذلك، كل مرة نعيد الكرة، ومع نهاية الحكاية نهرب إلى منازلنا، ونكتم الحكاية، لأننا ندرك بأننا المخطئات، ولا نهتم، ما دام ذلك يرافقه متعة اللعب..

وفي أحيان كثيرة يستهوينا تغيير المكان، فندخل إلى الوادي الذي يتوسط الجبلين، فنتخذ من أشجاره بيوتا، وفضلنا أن نتخذ أكبر اشجار السمر فيه لتكون بيتا لنا، فكل غصن من أغصانها الضخمة يلتف إلى أغصان أخرى فنهيء لنا مكانا نجلس فيه، كل منا استغلت طرفا في هذه الشجرة ليكون غرفة لها، وكل واحدة منا تضع في ركنها ما جمعت من علب ومحار. نستنشق هواء الوادي البارد، ونستمتع بأكل رقائق الذرة ومعه الصلصة الحارة وبذور دوار الشمس، ويرافقها مشروب غازي. كنت أُفضّل المشروب «فزي البرتقال» وأختي وبعض صديقاتي يفضلن «فزي الكولا»، وبعد هذه الوجبة، نتسلق الجبل لنصل إلى قمته التي تتبدّى لنا من خلالها قريتي بكل جمالها، وصور المدينة المستلقية على البحر، ليطل علينا بحر عُمان بسفن الصيد التي تمخر عبابه، وتبدو أمامنا «العيجة» وخورها وجبالها التي لكأنما نُحتت بيد فنان أبدع بتشكيلات الصخور، إذ تستلقي الجبال بجوار البحر وكأنها جسد ملكه، حيث الرأس الذي يستقبل موج البحر بخور البطح والرقبة على بوابة مدينة العيجة.

وتمتد الجبال على الطريق بينها وبين وادي شامة وقريتي بأوديتها المتعددة، والقرية المجاورة لها، إلى أن تتصل بصور المدينة وكأنه جسد يحتضن البحر ويحمي اليابسة من طغيانه..

وتتوسط أشجار القرم خور قريتي بلونها الأخضر؛ لتزيد من جماليات المكان. تلك الأشجار التي كنا نتراكض إليها في فترات الجزر، وكان عددها بسيطا جدا، فخصصنا لكل منا شجرة باسمه بحسب طول الشجرة بدءا بأطولها التي كانت من نصيب أخي سالم، والتي تليها طولا لراية ابنة عمتي، والأخرى لأختي صالحة، ثم لسالمة، ثم لي، وجمعة، وثابت، وسلطان.

كنا نزورهن بين فترة وأخرى، وتستمتع أرجلنا ببرودة أرض البحر، وأيدينا المشاغبة تبحث عن محار البحر الأبيض، الذي يندس بطين البحر، وفي موسمه نجده بكميات كبيرة، تتوزع كل مجموعة منه في ناحية، فحين نكتشف الأولى نجد إلى جوارها كميات كبيرة منه، فنتفاخر فرحا بهذا الصيد الوفير، ونكون كما تعودنا في قريتي أفواجا من الأطفال بنين وبنات نجوب الخور لننعم بخيراته. ومنها المحار الذي نشويه على الحطب، أو نغليه، ونضيف الملح والكركم له.. كل شيء في هذا المكان استمتعنا به حتى الجراد الذي كان يأتي في أسراب كثيرة، نركض وراء أسرابه بعصيّ مثبت فيها شبك صغير لنصطاده، ثم نشويه على النار ونأكله، ودائما كنا في هذه المغامرات أفواجا، نستمتع بهذا التنافس الطفولي.

جبل أبو الأدهم

قريتي الصغيرة كعين حورية؛ حاجبها الجبل، ورموشها رمل البحر «الشاطئ»، ودموعها تجري في الخور، وعلى طرفيها يرتكز الجمال، فهنا الجرف الصخري الرائع، ويقابله على الجهة الأخرى تل به قبر يقال إنه قبر إبراهيم بن أدهم الذي شهدنا إقامة ولائم وقرابين إلى جواره، فقد كانت بعض النساء اللاتي لا ينجبن أو يمرض أحد من أطفالهن، يقمن ولائم تحت سفح هذا التل بجوار القبر، وقد انتهت هذه العادة التي جُلبت من شرق آسيا.

وحين كنا نصعد إلى أعلاه، نرى جمال قريتي ببيوتها المتواضعة، وجمال مدينتي صور، وشموخ جبل خور البطح، وكأنه رأس ملكة فرعون مستلقية، وتنظر إلى السماء، والجبال الأخرى المجاورة تشكل جسدها وكأنها امرأة حبلى، كمدينتي الحبلى بتراث وجمال لا ينضب.

جبل أبو الأدهم زرته فجرا قبل شروق الشمس، وضحى، وعصرا قبيل غروب الشمس؛ لأرصد منظرها وهي تشرق من الجبل القريب منه، وغروبها خلف الجبال البعيدة التي تنتهي بها ولايتي صور. زرته حين لم يلتفت لجماله أحد سوى الوافدين الذين تكثر زياراتهم في يوم الجمعة، فيُبخّرون الغرفة التي بنيت لهذا القبر الذي يُغطّى بقماش أخضر تملؤه النقوش اللامعة الآسيوية، ويتركون قرابينهم إلى جوار الضريح؛ لتحقق أمانيهم.

كثيرا ما جربت التجوال في الأماكن في مختلف أوقاتها خاصة في أوقات الجمال بداية الصباح وفي الغروب.

كنت أستمتع بكل لحظة، لأنها لن تعود...

حكايات وادي شامة

وادي شامة الوادي الغض الذي كنا نذهب إليه قبل الفجر بسيارة والدي ذات اللون الكرزي، ويزيدها جمالا اللون الفضي في أسفلها. يأخذنا أبي وإخوتي وأخواتي وبنات عمتي في رحلة السقيا من عين في الوادي ما ذقت ماءً عذبا كعذوبة مائها. وفي أحد الأيام ولجنا الوادي، وكشفت لنا أنوار سيارة والدي غزالة وصغارها، وإذا بها تعدو وصغارها هاربة إلى الجبل، فلم أنس هذا المنظر الرائع. وصلنا إلى العين وبدأ والدي يملأ قناني الماء الكبيرة بالماء، وسقى كل واحد منّا، واتجهنا إلى قريتنا الصغيرة التي لا تبعد عن الوادي إلا بمقدار كيلومتر واحد.

رجعنا إلى البيت وتناولنا وجبة الإفطار؛ لنعود مرة أخرى إليه مع طلوع الشمس، تتقدمنا قطعان الماعز والأغنام التي نسوقها نحن ونساء الحارة وأطفالها، إلى أن نصل إلى العين، فنشرب حتى نرتوي. كانت العمة «سالمة بنت سعيد» تتولى سقيا الجميع، فتتناول وعاء وتملؤه، ثم تسقينا جميعا، ثم تواصل النساء الرعي، ونحن نتراكض إلى أشجار السدر؛ لنعتليها ونحصد ثمارها، فنملأ بها جيوبنا وأكياسنا، ثم نأكله في رحلة العودة إلى قريتنا. لم نكن نحن الوحيدين المرتادين لهذا الوادي، إنما كان أناس القرى الأخرى المجاورة وسكان مدينة صور والعيجة كذلك.

قريتي ومدينتي

لا يفصل قريتي عن مدينتي صور سوى خور بحري لا يتجاوز عرضه كيلومترين، إلا أن الفارق بينهما كبير جدا، إذ يتمتع سكان المدينة بكل خيرات التقدم؛ ماء وكهرباء وطرق مسفلتة، وقريتي كانت شبه معزولة عن ضجيج التقدم إذ يدثر الليل ملامحها كبقية الكائنات فيها، ويسكن من فيها بعد صلاة العشاء، إلا في أيام السمر.

كنا نعتمد على ضوء «السراج»؛ فانوس أزرق من الحديد تتوسطه قطعة قماش هي الواصلة بين مكان الإضاءة والكروسين (الكاز)، الذي ملأت به قاعدته الحديدية، ويغطي مكان إشعال النار «زجاجة»، وله مقبض حديدي يمكن أن يُعلَّق منه ويُحمَل كذلك.

وكنا نقتني التلفاز بلونيه الأبيض والأسود، ومصدر طاقته بطارية السيارة، إذ نوصل طرفي سلك التلفاز بأصبعي البطارية الرصاصيين. استمتعنا بمشاهدة المسلسلات البدوية ضحى كل يوم، وبرسوم الكرتون الراقية «سالي»، و«صاحب الظل الطويل»، و«الفرسان الثلاثة »، و«فتاة المراعي»، و«كابتن ماجد»، وغيرها كثير كنا ننتظره عصر كل يوم. ونترقب بعد المغرب مشاهدة المسلسلات الأجنبية: «الحسناء والوحش»، و«الرجل الأخضر» الذي كان يتحول إلى رجل ضخم عندما يثير غضبه أمرا ما، فيعين على الخير، ويقضي على الشر.

كثيرا ما غطت جدتي وجهها وهي تشاهده خجلا من أن يراها رجل غريب، وكنا ننتظر «سايلس» الفتى الصغير ذو الشعر الأشقر المسترسل

وحصانه الذكي الأصيل، كنا لا نفوت لقطة من برنامج «الحصن» كل يوم جمعة، والأفلام الهندية الرائعة وأبطالها حميدو بتشن ودار بندر.

افترشنا الأرض بساطا والتحفنا السماء، كنا ننام في فناء المنزل، وبعض جيراننا ينامون خارج منازلهم هربا من الحر. كان جارنا عبدالله يخرج تلفازه وفراشه أمام منزله، فيقصده مجموعة من شبان القرية لمشاهدة القناة الوحيدة «قناة عُمان» التي كثيرا ما أبهجتنا.

ليالي السينما

من ليالي السمر التي تحلو في قريتي الليالي التي نشاهد فيها أفلام السينما، إذ يحضر رجال يختارون بيتا مطليا باللون الأبيض، ليعتمدوا على خلفيته في تشغيل السينما، فكان يقع اختيارهم على بيت عمتي. كنا نتحلق حولها، الرجال إلى جانب والنساء إلى جانب آخر في زاوية بعيدة عن الرجال، وكنا نحن الأطفال نصعد في سيارة زوج عمتي «البيكاب»، التي أطلق عليها «بنت أبروق».

كثيرا ما شاهدنا فيلم عبلة وعنتر، واستمتعنا به بالرغم من أنه قد يكون يعرض للمرة الثانية أو الثالثة. أنصتنا لجميع تفاصيله، وتسامرنا عليها بعد انتهاء عرضه.

موسم القيظ

كان أبي يحملنا في سيارته نحو رحلة الصيف «الحضور»، فينطلق بنا «لجعلان بني بو حسن» في رحلة قصيرة لا تتعدى الأسبوع، حيث بيت جدي لأبي الذي كان يمتلك جزءا من نخل «سيارية» كما يُطلق عليها.. وفي يوم من الأيام وددت أن أستكشف طبيعة مزرعة جدي، فانطلقت خلفه، فزجرني عن ذلك ليجبرني على العودة، فأصررت على ذلك، وتبعت خطاه، لكنّ حرارة رمال جعلان الحارقة ألهبت قدمي فأجبرتني على العودة.

في هذا الموسم ينتقل أغلب سكان قريتي إلى جعلان، نحو نخيلهم إلى أن يحصدوا ثماره، ويجمعوا أكبر قدر منه.

تبدو قريتي موحشة في الصيف، إذ يقل صخبها. في نهارات الصيف نلجأ إلى البحر لنخفف من حره، فنستحم به ضحى كل يوم.

وفي العصر تبدأ مهمة جلب التمور من بلاد صور، التي تكثر بها مزارع النخيل، أُوكلَت هذه المهمة إلى أخي سالم بالرغم من صغر سنه؛ لسفر والدي للعمل بالعاصمة، وكان أخي يأخذنا معه في هذه المهمة، في بعض الأحيان، وفي أحيان كثيرة يذهب هو وأمي.

من وحي العيد

أسماء سالم الهاشمية

جلست أراقب تلك البذور الغضة التي تجمعت للذهاب إلى الهبطة، أحسست أنها جديدة لم تعتدها ذاكرتي، بالرغم من صغرها فإن عوامل الطبيعة بدأت ترسم فيها ما خفي علي. تذكرت فانا الآن أعيش خمسة عشر عاما مضت، استحضرت في مخيلتي... أمي... جدتي وأختي الكبرى وهي تجلسني صبيحة «يوم الهبطة» منذ الفجر الباكر لتجدل ضفائري بالياس والزعفل، وترسم بخطوط الزعفران والصندل والكحل على وجهي نقشًا تعجز أرقى بيوت الموضة عن صنعه. تذكرت دشداشة البريسم التي عاشت معي مثل هذه الفرحة، وقبلها مرات ومرات قاومت كل هجوم حشري في «مندوس» أمي، تذكرت كمتي السوداء الجميلة غطاء للرأس تلبسه الفتيات في جنوب الشرقية، وهي تزين قامتي الصغيرة النحيلة.

تذكرت صباح العيدية وآثار النوم بادية على تلك الأفواه الغضة الصغيرة، تتراكض حشودا وتزداد كلما زاد عدد الحارات التي نقطعها، تشهد لنا كل سقطة من أثر تعثر بالحجر، وكل تزاحم على أبواب البيوت، تشهد لنا جارتنا العجوز التي تجري خلفنا بعصاها لتبعدنا عن «عريشها الخوصي». نخرج لها ألسنتنا انتقاما؛ لأنها لم تعطنا العيدية، فتعود إلى كوخها بعد أن تفشل في اللحاق بنا. تتواصل المزاحمات مع كل تجمع رجالي نراه في طريقنا، بعضهم يعطينا

عشر بيسات وبعضهم يمتنع معتذرًا. لا نصدقه، نتعلق بدشداشته، يتخلص منا بعد جهد جهيد بالعصا.

رحلة طويلة لنجمع فيها البيسات، نجلس بعدها نحسب الغنيمة والشمس شاهدة والعرق يتصبب، لا يأمل أحدنا بأكثر من ربع ريال.

نبدأ بعدها التفكير ماذا يمكن أن أشتري بهذه الغنيمة الكبيرة، تتفق كل جماعة على ما يحتاج إليه بيتهم الرملي الصغير الذي ينتظر في طرف الحي. نذهب لنشتري ما حلمنا به، ونُفاجأ بأن النقود لدينا لا تكفي، نعود لنقنن مشترياتنا لتصل إلى أقل ما يمكن أن يحلم به طفل، فنشتريها ونعود معها بالدنجو «الحمص» المطبوخ ولقيمات «حبوه غبيطة» فرحين بهذه الحصيلة التي تُحقق جزءا من حلمنا، ونؤجل بقية أحلامنا للعيد المقبل. ما زلت أتذكر.. ما أجملك يا خيالا رسمته أضواء المصابيح ونيران مواقد الحلوى على جدار بيتنا الطيني ونحن نتراقص على أصداء مدفع العيد! ما أجمل رائحة الحلوى! تنقّلنا بين أرباب صناعتها، يضعون لكل واحد منا نصيبه في قطعة من الكرتون، نعود نلعق أصابعنا لا ندري من حرارة الحلوى أم من حلاوتها.

أين تلك الأيام من أطفال اليوم؟ اختفت رسوم الزعفران من الخدود الرقيقة وامتلأت دواليب الملابس بأطقم خاصة بالعيد، في لحظة دامعة بهدوء الفرحة المكبوتة داخلي، سمعت طفلة في الخامسة من عمرها وهي تعيد العيدية وتقول: «لا أريد، لدي نقود كثيرة ماذا سأشتري بها؟». لحظتها تعلو ابتسامة فارغة وأنا أقول: «ليتني أعود خمسة عشر عاما وسأريك خارطة العيد ومشترياته خاصتي».

فهرس المحتويات

المقدمة..... 7

طيري يا طيارة / **ميّا الصواعية** 9

بين طفولتين / **سالمة المرهوبية**..... 13

طفولة بين جنبات البحر والجبل / **سعاد علي العريمية** 15

طابور الصباح / **خاتمة الرشيدية**..... 18

جيوب الذاكرة / **فاطمة العلياني**..... 22

يا (مي) حبك / **د. مريم طه** 28

دموع الغسق / **زهرة الراسبية** 31

حوار في أعماق ريفية / **أسماء سالم الهاشمية** 35

أسود / **زهرة الراسبية**..... 37

سميرة بنت الجيران / **ميّا هديب الحبسية** 46

تاريخ ميلادي / **وضحى المسرورية** 51

شجرة الخوخ / **د. مريم طه**..... 56

رسائل / **سمية المعمرية**..... 58

يوميات / **وضحى المسرورية**..... 60

دموع حمزة / **رقية عبد الله الراسبية** 65

أبو زيد الهلالي / **ميّا الصواعية**..... 68

حن يا ماضي / **د. دينا علي شرف الدين** 80
الجوهرة / **ميّا الصواعية** 83
جبل العيد / **سعيدة الراشدية**..... 85
بيتنا القديم كأنك تراه / **وضحى المسرورية** 87
سطح البيت الجديد / **سالمة المرهوبية** 97
حكايات البحر / **سعاد علي العريمية**..... 100
من وحي العيد / **أسماء سالم الهاشمية** 109